مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: موقف ابي الطيب المتنبي من الزمان (303 - 354 هـــ)
اسم الكاتب: أ.د. هاشم صالح مناع
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2830
تاريخ الاسترداد: 2026/11/02 12:27 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

موقف أبي الطيب المتنبي من الزمان (303– 354 هـ)

أ.د. هاشم صالح منَّاع*

الملخص

موضوع الزَّمان والدَّهر... من الموضوعات الَّتي شَغلت الشُّعراء القُدامَى والمحدَثين علَى حَدٍّ سَواء، تناولوا فيها الشَّكوى لِمَا أصابهم من مصائب، ونَزَل فيهم من نوائب، بَيْدَ أنَّهم لم يَقفوا عليها وقفة متأنّية معمَّقة، فهم لا يكادون يغادرون موضوع الشّكوى والتوجع إلاَّ في حالات نادرة.

أمَّا المتنبي فقد وقفَ على هذا الموضوع كما وقف الشعراء عليه مقلدًا، لكنه أَكْثَرَ منه مطوِّرًا، وزَادَ عليه مجددًا، فلا تكاد تخلو قصيدة منه، وهو القائل: [من الطَّويل]

أَلا لَيْـتَ شِـعْرِي هَـلْ أَقُـولُ قَصِيـدَةً فَـــلا أَشْتَكِـــي فِيهَـــا وَلا أَتَعَتَّـــبُ!؟

وتعود هذه القضايا إلى أسباب كثيرة منها: نفسيَّة، وشخصيَّة متمثّلة في أنَّ الزَّمن لم يقدم له شيئًا، ولم يسعفه في تحقيق طموحاته، ونيل مطالبه بالإضافة إلى علاقته بالنّاس عامَّة، والأمراء والحسَّاد خاصَّة، فقد نقم عليهم؛ لأنَّهم لم يحقِّقوا آماله؛ لأن الزَّمن وقف معهم ضدَّه، ولهذا يرى أن الشكوى والعتب قد يخففان مما يعاني منه، ويريحان النفس، مع أن الشاعر على يقين بأن الشكوى لا تفيد، والعتب لا يجدي، فهي حالة نفسية ضاغطة تخرج نفثات ألم ومعاناة وضيق...

لقد استقصى المتنبي هذا الموضوع من جميع جوانبه من حيث: الشَّكوى من الزَّمن، وتحمُّله إيَّاه، والصَّبر عليه، ومواجهته، وتحدِّيه له، وازدراؤه، ذلك بسبب المعاناة النَّفسية الكبيرة التي كابدها في ظلِّ ظروف صعبة، إذ لم يَعُدْ بإمكانه القبول بالمسلَّمات الَّتي لم تجلب معها إلا قسوة الظُّلم والقهر، والأسى والعذاب، والشقاء والحرمان؛ ولذلك كله تعامل معها تعامل الخبير العارف، والمكابد الصابر، بكل حكمة وأناة، ما جعله يقف مثل الجبل الأشم أمام هذه التحديات، ويحقق بعضًا مما كان يطمع إليه ويطمح.

* الأردن، جامعة الإسراء، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

Al-Mutanabbi's View of Time in his Poetry [303 – 354 HJ]

Dr. Hashim Saleh Manna[**]

Abstract

The passing of time and life are one of the topics that preoccupied the old and modern poets alike. In these topics, they constantly, discussed their complaints from the hardships & misfortunes they have suffered and experienced.

As other of his contemporaries, Al-Mutanabbi, who is one of the most prominent Arab poets, discussed this issue as an imitator, yet he developed his own style. These issues involve many personal and psychological reasons as time did not serve him, nor did it give him anything. In fact, he was full of vindictive feelings against people who envied him because he believed they didn't allow him to achieve his hopes and aspirations. This made him see that complaint and reproach could mitigate his suffering and relieve the poet though not change things.

On the other hand, Al-Mutanabbi went to the root of this topic in all its aspects where he complains so much of the rapid passing of time, and how this causes suffering and puts his patience with time under a difficult test. The poet's confrontation with time and finally, his contempt of it were due to the serious psychological suffering he faced in very difficult circumstances. As in view of the fact, that he was unable to surrender to the postulates and axioms that have only brought him severity, injustice, subjugation, grief, torture, lowness & deprivation.

[**] Jordan, University of Israa, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language.

مقدمة:

إن المعاناة الشعورية تظل ضبابية بل غامضة غير واضحة المعالم، تسيطر على النفس؛ لأنها تتغلغل في أعماق الذات بشيء من التعقيد، ذلك أن النفس غير قادرة على تحقيق المواجهة الفعلية لأسباب نفسية، ما يدفعها إلى إصدار التعبير الذي يمثل حقيقتها؛ لأنها كانت في مرحلة اللاشعور، وهي مرحلة انفعالية شديدة التأثر والتأثير أكثر من مرحلة الوعي التي تعبر عن الفكر المباشر.

إن العالم الخارجي الذي يحيط بالشاعر عالم مؤثر، يضغط بثقله على العالم الداخلي له، فيسرب تلك الانفعالات تحت تلك الضغوطات، بل يمكن أن نعدّ العالم الخارجي الرحب غطاء للعالم الداخلي الجياش، إذ يتسع الأول لكل انفعال صادر عن الآخر، ويتحمل قوته وقدرته مهما كانت، ولذلك يصبح العالم الداخلي مرسلًا للمعاني إلى العالم الخارجي الذي يتحمل صدماتها، ويعكسها وكأنه هو المرسل الحقيقي لها، ويبدو العالَمَان عندئذ عالَمًا واحدًا متَّحِدًا، لا انفصام بينهما ولا تناقض؛ لأن القضية قضية معاناة وشعور، وانفعال وتفاعل، وتأثر وتأثير، وإرسال واستقبال، إنها قضية تبدو شديدة التعقيد، لكنها في الوقت ذاته متلاحمة في صورة كلية واحدة، تكشف عن بساطتها، ووضوح معالمها، دون حاجة إلى إعمال الفكر؛ لتفسير غموضها، ما يدفعنا هذا إلى القول: إنه اختلاف الأحوال الانفعالية التي تجعل الشاعر يتبدَّل ويتغيَّر في انفعاله من حين إلى آخر، ما يولد عنده مراحل في الانفعال قد تكون متسلسلة تسلسلًا منطقيًا، وقد تكون مشوشة يسودها جوّ ضبابيّ يكاد يخفي معالمها، وقد تكون متناقضة متعارضة، لا رابط بينهما، بسبب وطأة الانفعال.

مفهوم الزمان والدهر وغيرهما:

الأزمان والأزمنة والأَزْمُن: جمع الزّمن والزّمان، اسم لقليل الوقت وكثيره، وزَمَنٌ زَامِنٌ: شديد، وأَزْمَن الشيء: طال عليه الزمان، ويقال: إن الزمان والدهر واحد، ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر، والدهر لا ينقطع، وهو عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة، وعلى مدة الدنيا كلها.[1]

الدهور والأدهر: جمع الدهر، وهو الأمد الممدود، وقيل: ألف سنة، وقيل الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأطول، ويقع على مدة الدنيا كلها، وقيل: الزمان والدهر واحد،[2] يروى عن الرسول ﷺ أنه قال: "لا تَسُبُّوا الدهرَ، فإنَّ الله هو الدهر"،[3] ومعناه أن ما

---

[1]– لسان العرب: (زمن)؛ وانظر: المصباح المنير، وتاج العروس: (زمن)؛ وانظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص: 270–271.

[2]– المصدر السابق: (دهر)؛ وانظر: الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، ص: 270–273/271.

[3]– انظر: صحيح مسلم 5/8؛ كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها؛ باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم(2246). رواه أبو هريرة ﷺ. وهناك روايات أخرى للحديث في الباب نفسه.

أصابك من الدهر فالله فاعله، ليس الدهر، فإذا شتمت به الدهر، فكأنك أردت به الله، يقال: لأنهم كانوا يضيفون النوازل إلى الدهر، فقيل لهم: لا تسبوا فاعل ذلك بكم، فإن ذلك هو الله – تعالى– ويقال: إن العرب كان شأنها أن تذمّ الدهر، وتسبه عند الحوادث، أو النوازل، تنزل بهم من موت، أو هرم، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه، وأبادهم الدهر، فيجعلون الدهر الذي يفعل ذلك فيذمونه،[4] وقد كذبهم الله – تعالى– بقوله: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}[5]، تقول أصابهم الدهر بنفوسهم وأموالهم: جَاحهم فيها ففجعهم، والمصيبة: ما أصابك من الدهر.[6]

والدُّنْيا: اسمٌ لهذه الحَياةِ لبُعْدِ الآخرة عَنْها، والسماء الدُّنْيا لقُرْبها من ساكِنِي الأَرْضِ، يقال: دِنْيَةً ودِنْيًا منوَّنٌ ودِنْيَا غير مُنَوَّنٍ، وكذلك: دُنْيَا ودُنْيا، ويقال في جمعها: (الدُّنى).[7]

إذًا، هذه الألفاظ أوقات متصلة متوالية، كما نقول في الأزمنة والدهور، أو متقطعة مثل الأيام والليالي، وقد تكون مترادفة كما قيل في الزمن والدهر اللذين هما أيام وليال، وليس المقصود بها عند الأدباء الذات الإلهية أبدًا؛ لذلك راحوا يعبّرون عنها بصفتها أوقاتًا وأزمنة...[8]، فقد بيّنا معناها بإيجاز، لأنها مفاتيح البحث...

الأسباب التي دفعت المتنبي إلى الشكوى من الزمن وغيره:

إن مواقف المتنبي من الزمن وما شاكله – من الشكوى منه، وتحمّله إياه، وحقده عليه، وتحديه، ومهاجمته له– يعود إلى أسباب كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أسبابًا نفسية ذاتية شخصية، وأخرى تعود إلى علاقته بالناس بشكل عام، والأمراء والحساد بشكل خاص، وهي تمثل مراحل متتابعة متواصلة، يتولّد بعضها من بعض.

---

[4]– لسان العرب: (دهر).

[5]– الجاثية: 24.

[6]– لسان العرب: (صوب)؛ (جاحهم: استأصلهم وأهلكهم. والجائحة البلية والتهلكة والداهية العظيمة).

[7]– اللسان:(دنا)؛ وتاج العروس:(دنى). ويقول صاحب التاج في جمع دنيا: وقيلَ هو جَمْعٌ نادِرٌ غريبٌ عابَهُ صاحِبُ اليَتِيمَةِ على المُتَنبيِّ في قوْلِه: (أَعَزُّ مكانٍ في الدُّنَى سرجُ سابحٍ).

[8]– انظر: الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، ص: 273؛ وانظر بعض الأمثلة في: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، خطبة رقم 32، و35و88 و103و108 وغيرها كثير؛ وكذلك انظر: رسالة عبد الحميد الكاتب، ومما جاء فيها: "إن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيدًا لها... وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدًا، وإليكم وجدًا..."؛ وانظر بعض أشعار قيس لبنى، شعر ودراسة: حسين نصار، ص: 146/104/94/83؛ وبعض الأشعار لمجنون ليلى، الديوان: ص: 295/294/281/261/152/100/90/89؛ وبعض الأشعار لكثير عزة في شرح ديوان كثير عزة: رحاب عكاوي، ص: 235ـ236؛ وديوان البحتري: ص: 2/112–726/2–1082–1587/3–1588، وانظر عن الزمان وغيره أمثلة أخرى في ثمار القلوب: ص: 641/634.

أما الأسباب النفسية والذاتية: فهي تتمثل في المعاناة الكبيرة التي نتجت عن: طموحه وطمعه اللذين دفعا به إلى التطلع بآماله إلى مدى كبير في الدنيا،[9] وإعجابه ببلاغته التي أثارت حساده، ودفعتهم إلى اتهامه بالنبوة؛ ليحطوا من قدره، ويتخلصوا منه،[10] أضف إلى ذلك ما كان يؤمن به من إصلاح اجتماعي، وثورة سياسية قومية وطنية بمفهومنا الحديث،[11] وقد كان معتدًّا بنفسه، معتزًا بشجاعته، مفتخرًا بفروسيته،[12] متفردًا على أبناء زمانه، متميزًا من شعراء عصره،[13] يضاف إلى ذلك: قوته، وهمته، وعزيمته، وإباؤه، وكبرياؤه[14]، وفلسفته في الحياة،[15] وتربعه على إمارة الشعر، وذروة المجد والكرم،[16] وقد كان يتمتع بخلق يأبى به أن ينزل إلى مجالس اللهو، وأن يتعاطى المجون، كما أنه ابتعد عن الحب والغزل، ومجاراة شعراء عصره،[17] والأمر المثير للغرابة والدهشة أنه ترفع عن مدح غير الملوك والأمراء، وأصحاب السلطة الذين حرص عليهم دون غيرهم، إذ اتصل بهم ونادمهم، ونال عطاياهم وجوائزهم، وكانت له دالة عليهم، فقد عرَّض بهم تارة، وتجاهلهم تارة أخرى، وعاملهم الندّ للندّ؛ لأنه كان يشعر بالكفاءة والمقدرة على تسلم السلطة، وهو أجدر منهم بذلك.[18]

---

[9]– انظر أبياتًا في هذا الشأن في: شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 1/324–4/235–364–427.

[10]– انظر أبياتًا في هذا الشأن في المصدر السابق: ص: 2/93؛ ويتيمة الدهر: الثعالبي، ص: 1/113؛ والعمدة: ابن رشيق القيرواني، ص: 1/172؛ والصبح المنبي عن حيثية المتنبي: يوسف البديعي، ص: 66؛ والفن ومذاهبه: شوقي ضيف، ص: 304.

[11]– انظر أبياتًا في هذا الشأن في: شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 2/45–46–251. وأسرار البلاغة: الجرجاني، ص: 266.

[12]– انظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي: يوسف البديعي، ص: 71؛ ويتيمة الدهر: الثعالبي، ص: 1/118–197؛ وشرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 2/301–4/85–160–235–295.

[13]– انظر أبياتًا في هذا الشأن في: شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 2/45–47–244–3/281–4/190–354.

[14]– انظر أبياتًا في هذا الشأن في المصدر السابق: ص: 2/127–4/179–180–234–321–372؛ ومقالة بعنوان: "جنون العظمة في المتنبي": عبد الرحمن صدقي، الهلال، ص: 1179 (3سنة1934م). ومقالة أخرى بعنوان: "فضيلة خلقية": طاهر أحمد الطناحي، الهلال، ص: 1182 (43 سنة 1934م).

[15]– انظر أبياتًا في هذا الشأن في: شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 2/123–127–325–3/294–4/246 – 291–307.

[16]– انظر أبياتًا المصدر السابق: ص: 2/48–3/230–4/83–84؛ ويتيمة الدهر: الثعالبي، ص: 1/110.

[17]– انظر أبياتًا في هذا الشأن في المصدر السابق: ص: 1/165–166–186–317–318–2/253–3/4–41–190/4–321–322.

[18]– انظر: أبياتا في هذا الشأن في المصدر السابق: ص: 1/159–2/3–15–123–127–248–325–3/294–80/4–90–246–291–307–432–434؛ وحاشية شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي: العكبري، ص: 1/147؛ ومع المتنبي: د. طه حسين، ص: 168 وما بعدها؛ ومقالة بعنوان: "هل كان المتنبي فيلسوفًا"؟: أحمد أمين الهلال، ص: 1136 (43 سنة 1934م).

وأما علاقته بالأمراء وأصحاب السلطة، فقد تمثلت بعدم تحقيق طموحه وتطلعه، ونيل مطلبه منهم، ما حدا به أن يقف منهم موقف المجامل حينًا، والمتجاهل المترفع المتحدي حينًا آخر، لاسيَّما حين وجد الحساد والوشاة والكائدين الذين بدأوا يرمونه بسهام الكيد والشماتة ينعمون برعاية هؤلاء الذين يقوم بمدحهم، ويعظم من شأنهم، وينوه بذكرهم، ويسجل مآثرهم، ويبيع شهادات المجد لهم، ويخلد ذكرهم، فقد ضاق ذرعًا بهؤلاء الحساد الذين شكاهم وتحملهم، لكنه لم يطق بعد ذلك هذه المضايقات التي ضجر منها، ما دفعه إلى مهاجمة أصحاب تلك السريرة الماكرة الغادرة، والنفوس الحاقدة الحاسدة.[19]

لا شكّ في أن هذه الأمور مجتمعة كانت كفيلة بأن تجعل المعاناةَ كبيرة في نفسه، ما جعله "متشائمًا؛ لأنه صاحب رجاء خاب في الناس على غير انتظار، ولو لم يخب هذا الرجاء لما كان من المتشائمين، والمتنبي ينظر إلى الناس في عصره، ولا يعمم الحكم على الناس جميعًا إلا لما أصابه من زمانه وأهل زمانه... فمعظم تشاؤمه بل تشاؤمه كله نجده في جوهره... فهو يتشاءم لعلة عارضة، وهي أن زمانه وأهل زمانه لا ينيلونه ما ينشده من الجاه، ومن هنا كان الذنب عنده ذنب جيله، ولا شأن له فيه؛ لأن رجاءه أن ينال على أيديهم ما ناله أمثاله ومن هم دونه في اعتقاده، دليل على أن يرى الشأن فيهم أن يعدلوا ويعترفوا بالفضل ويعطوا ذا الحق حقه، ولو كان متشائمًا بطبعه لما عجب الإنسان لفساد طباعهم، وحاجة المرء بينهم إلى الدس والخداع والحيلة وإرضاء اللبانات والشهوات..."،[20] وعلى أية حال، فإن المتنبي "ينظر إلى الناس نظرة الحكيم إلى الحمقى، والعليم إلى الجهلاء، أفيستطيع هذا الرجل أن ينسى نفسه؟ أو يخفي شخصيته؟ أو يكون غير ما كان؟ أو يقول غير ما قال؟".[21]

والدارس لديوان المتنبي، والباحث في موضوعاته على اختلاف أنواعها يجد أن الشاعر: "هو المغامر المعتد بفضله الفاشل في أمله الساخط على زمنه"،[22] ويذكر الدكتور شوقي ضيف أن المتنبي كان "يعاوده تشاؤمه القديم، وحقده على الزمن والأحياء ويضطر اضطرارًا، وقد أحس الخطر على حياته أن يفرّ مع أسرته خفية"، ويضيف قائلًا: "وشعره مع كافور مدحًا وهجاءً يفيض بالثورة على الزمن، والتشاؤم الشديد".[23]

---

[19] انظر: يتيمة الدهر: الثعالبي، ص: 120/1-122-224؛ ووفيات الأعيان: ابن خلكان، ص: 123/1؛ ومع المتنبي: طه حسي، ص: 94 وما بعدها-135 وما بعدها؛ ومقالة بعنوان: "حياة المتنبي": شفيق جبري، الهلال، ص: 1159 (43 سنة 1934م).

[20] مقالة بعنوان: "شخصية المتنبي في شعره": عباس محمود العقاد، الهلال، ص: 1122-1124، (43 سنة 1934م).

[21] المصدر السابق: ص: 1126.

[22] المصدر السابق: ص: 1126.

[23] الفن مذاهبه: ص: 308/307.

ويرى الأستاذ أحمد أمين: "أن الزمان لا يسعف المتنبي إلى ما طلب، ولا يعينه على ما أمل... وهو يودّ من الأيام ما لا تودّه، عذبته الدنيا فجعلت نفسه نفس ملك، وهمته همة ملك، وشعره ملك الشعراء، أو على الأقل فيما يعتقد هو، ثم جعلته فقيرًا لا يملك من الدنيا شيئًا..."، ثم يضيف قائلًا: "تبًا لهذا الزمان الذي وضعه هذا الوضع، منحه صفة الملوك، ولم يجعله ملكًا، وحرمه المال ولم يحرمه النفس... إنه اعتداد بالنفس لا إلى حدّ، وطموح ليس بعده طموح، ونقمة على الزمان؛ لأنه لم يسعفه، ونقمة على الناس؛ لأنهم لم يحققوا أمله . هذا كله روح فلسفة المتنبي وكل ما قاله فهو صدى لهذا الوضع، وترجمة لهذه الأحداث وتعبير عن شعوره بها".[24]

لقد كانت هذه المراحل التي مرّ بها المتنبي من الشكوى، والتحمل والصبر، والمواجهة والتحدي، والأوضاع التي عاشها، غذاء لتلك النفس التي عانت معاناة كبيرة، وكابدت في ظل ظروف صعبة، جعلت منها بركانًا ثائرًا يرمي بحممه الناس كل الناس، ومتشائمًا حاقدًا يحمل حملة شعواء على الزمان والدهر والأيام... التي يرى أنها جارت عليه، وظلمته بالوقوف مع حساده، وضد طموحاته، وعاكسته في نيل مطالبه، وعارضته في تحقيق غاياته وأهدافه، بل وقفت ضده متحدية إياه، إذ لم ير بصيص أمل في حلٍّ يرجوه معها، ولا انفراجًا فيتراجع عدوانها، أو تنقشع غيومها.

ولا شكَّ أن هذه القضايا . على الرغم من سلبياتها التي جعلت المتنبي يعاني منها معاناة كبيرة . كان لها الأثر العظيم في شعره، بل هي فضيلة لقي الشاعر منها روافد غنية، غذته بها، وكانت مصدر إلهام؛ ليكتشف الأشياء الغامضة المستترة، وينفذ إلى إدراك ما لا يتمكن غيره من إدراكه.

إن الانتصار الذي حققه على الحساد، وترفعه عنهم، والحظوة التي نالها عند الأمراء وذوي السلطة، جعلته يبحث عن عالم جديد، يلبي طموحاته، ويحقق له أهدافه، ذلك هو: الزمان، والدنيا، والأيام التي شغلته في تأملاته، وهو يبحث عن سرها؛ لعلّه يجد ضالته فيها، وسرعان ما يكتشف أنها لم تحقق شيئًا من الذي يصبو إليه، ولذلك ذمها، وسخط عليها، واتخذها عدوًّا لدودًا.

الشكوى من الزمان والدهر وغيرهما:

إن الزمان والدهر، وكذلك الدنيا والأيام والليالي عناصر تواجه القاصي والداني، وهي ثابتة لا تتغير في المنطق العقلي، لكنها تتغير في التجارب الشعورية التي تبدعها المعاناة من حين إلى آخر، ومن شخص إلى آخر، بل تتغير عند الشاعر ذاته بين

[24]– مقالة بعنوان: "هل كان المتنبي فيلسوفًا": الهلال، ص: 1136–1137، (43 سنة 1934م). وانظر مقالة أخرى بعنوان: "عبرة الشباب": سامي الكيالي، الهلال، ص: 1155، (43 سنة 1934م).

الفينة والفينة، تبعًا للحالة النفسية، واللحظة الانفعالية، وتتقلب أحوالها تبعًا لمن راقبها من كثب، ورصد أحداثها مهما حاول أن يركن إليها ويطمئن، وينكشف أمرها بأن صدقها كذب، وأمانيها غرر براقة، يقول: [من الطويل]

وَمَـنْ صَـحِبَ الـدُّنْيَا طَـويلًا تَقَلَّبَـتْ عَلَـى عَيْنِـهِ حَتَّـى يَـرَى صِـدْقَهَا كِـذْبَا[25]

والجدير بالذكر أن هذه العناصر قد تستخدم بمعنى واحد عند بعض الشعراء على الرغم من اختلاف معانيها ودلالاتها، وربما نجد تضادًا بينها، وهي معنوية، لا مادية يتخيلها الإنسان ويشخصها، تكابدها النفس، وتذوق حلاوتها ومرارتها على حدّ سواء، وإن طغت الأخيرة على الأولى في معظم الأحيان، وهي انفعال نفسي في صورتها وتأثيرها وأبعادها.

إن معاناة النفس نوع من التوحد مع العالم الخارجي، وهو إلهام يقف على الظواهر الخارجية، يخضعها لفيض النفس وعطائها، ويختلف هذا من شاعر إلى آخر، فهذا يرضى بما يحيط به، وذاك يتفهمه ويهادنه، وآخر يتمرد عليه بل يرفضه...

والمتنبي يبصر كل هذا ويدركه، فهو يعترف بوجود الظواهر، ويتعامل معها، لكنه لا يرضى بالاستسلام لها وإن شكاها، يتفهمها ويتعمقها لكي يقوي نفسه بها، وقد يهادنها درءًا لمخاطرها، وكأن هذا التعامل إرهاصات ومقدمات تمهد للتمرد، وتؤدي للمجابهة، وهذا يدفعنا إلى القول: إن هذه القضية مصيرية للشاعر؛ لأنها تواجه إنسانا يطلّ عليها ببصيرته، يدفعه الانفعال الثائر إلى تحطيم الحواجز بين الماديات والمعنويات؛ ليخلط عناصرها، من أجل تشكيل قوة رادعة لجبهة عدوانية متخيَّلة، تتوق النفس المبدعة إلى إخضاع كل الرموز المسيطرة على النفس الإنسانية العادية؛ لتخرجها عن المألوف، إذن، نحن أمام صراع لا يمكن تجاهله، يمثل نوعًا من التجديد، وذلك بتغيير الثوابت والمسلمات، وينطلق إلى عالم جديد، وواقع متغير، لا يقف عند حدود الأشياء، ويمكن القول: إن هذا التعامل، وهذا التصور، يمكن أن يولّد قيمًا فنية راقية، وإبداعات رائعة ينتج عنها كسر الجمود، وإطلاق العنان أمام المفاهيم إلى عالم رحب واسع يتجدد مع تجدد الانفعال النفسي، فالدنيا هي الدنيا التي تمثل الحياة بكل معاناتها، لا تختلف من عصر إلى عصر يكابد فيها الإنسان، ويكدح من أجل النجاة والخلاص، يستسلم أمام المصير الحتمي الذي تكتنفه المخاطر والصعاب، ويحفه التعب والعناء، ولا يستطيع التخلص منه أو الفرار: [من البسيط].

وَمَـنْ تَفَكَّـرَ فِـي الـدُّنْيَا وَمُهْجَتِـهِ أَقَامَـهُ الْفِكْـرُ بَـيْنَ الْعَجْـزِ وَالتَّعَـبِ[26]

---

[25]- شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 182/1.

[26]- المصدر السابق: ص: 225/1. (والمهجة: الروح).

إنها لحظة إدراك حقيقية، لم يعد المتنبي يطيق العجز الذي يطبق بجناحيه على الإدراك الوجداني الرحب، والانفعال الداخلي الثائر، ما جعله يأسر فينا العقل والإحساس، ويقنعنا بما ذهب إليه؛ لمقدرته على التأثير الذي هو هدف الشعر وغايته، على الرغم من اختلافه معنا في قناعتنا، وتناقضه مع ما نؤمن به، وبعده عن منطق الفكر الذي يقودنا إلى التسليم، أو لعدم إدراكنا المفاهيم بنفس الطريقة التي يتعامل بها من خلال معاناته، وليس بالضرورة أن نتفق معه أو نختلف، المهم هو مدى التفاعل والتأثير اللذين نصل بهما إلى التأثر والقناعة.

وقد توافق المتنبي مع من سبقه في تناول هذا الموضوع، واستسلم مثلهم ضعفًا وكرهًا وطواعية، وقد يخالفهم في أحيان أخرى، وقد كان تناولهم لهذا الموضوع كما رأينا تناولًا تقليديًا عابرًا سوى فلذة هنا، واخرى هناك، تحدُّوا بها الزمن والدهر والأيام، ولكنهم لم يقفوا مثلما وقف المتنبي منها، إذ أكثر منها إكثارًا لافتًا،[27] ولا تكاد قصيدة تخلو منها، ويمكننا أن نزعم بل نجزم أنه أكثر الشعراء تناولًا لهذا الموضوع في: الشكوى منه، وتفهمه، وتحمله، وإهماله، وتحديه، ومواجهته، والهجوم عليه والازدراء منه... ولعل ما نورده من أمثلة خير دليل على ما ذهبنا إليه، يقول: [من الكامل]

إِنِّـــي دَعَوْتُـــكَ لِلنَّوَائِـــبِ دَعْـــوَةً لَـــمْ يُـــدْعَ سَامِعُهَـــا إِلَـــى أَكْفَائِـــهِ

فَأَتَيْـــتُ مِـــنْ فَـــوْقِ الزَّمَـــانِ وَتِحْتِـــهِ مُتَصَلْصِـــلًا وَأَمَامِـــهِ وَوَرَائِـــهِ[28]

إنها دعوة موجهة إلى سيف الدولة الذي يرى أنه يمثله أصدق تمثيل، لمواجهة المصائب وشدائدها،[29] لا إلى مواجهة الأقران والنظراء؛ لأنها أقوى منهم وأكثر تأثيرًا، ولذلك يستنهضه لمجالدتها؛ لأنه فوقها، بل هو أشد بطشًا منها. فدفع نوب الزمان عن النفس حماية لها، ودرءًا للخطر عنها، فالزمان هو الزمان، لا يحمل العداوة لأحد، بيد أن ما يعانيه الإنسان ويكابده، يعيد أسبابه لهذا الزمان، وكأنها مواجهة بين فريقين: الإنسان والزمان، لا الإنسان والإنسان، فما كان بين المتشابهين مقدور عليه، ولكن المعضلة تتجلى بين الضدين؛ لأن المجابهة غير متكافئة، فالصراع القائم يتمثل في وطأة الانفعال، من شدة اليأس في المواجهة، فقد أحست النفس بيقين قسوة الزمان، وما ينزله من ظلم وقهر بها، ما دفعها إلى النقمة عليه، ولكنها، لا تفي بالغرض؛ لأن النتيجة معروفة بحتمية انتصار الزمن، والشاعر لا يريد أن يخسر هذه المعركة التي تؤول إلى

---

[27]– لقد أفرد الثعالبي في كتابه: يتيمة الدهر: ص: 4/203–214 بابًا خاصًا وسمه بـ" شكوى الدهر والدنيا والناس وما يجري مجراها".

[28]– شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 1/133؛ (المتصلصل: الذي له صلصلة وحفيف من وقع الحديد).

[29]– هناك كثير من الشواهد التي يرى فيها سيف الدولة المعين الذي يعينه على مصائب الدهر، ويمثله أصدق تمثيل، انظر بعض الأمثلة في المصدر السابق: ص: 4/60–62–69–73–97–109–176–195.

تحطيم النفس بنتائجها؛ لذلك أخذ يحصن نفسه بما يحقق له صبوته، ويقيه من الأخطار، ويحفظ عليه قوته التي يدخرها للمواجهة في الشدائد، إنه يتقوى بما لا يملك؛ لمجابهة ما لا يقدر عليه، حتى يوفر الروافد التي ترفده في تقوية عزيمته، وتشد من أزره، ومهما يكن من أمر فإن الشكوى من المعاناة قائمة، يقول: [من الكامل].

كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الْخُطُوبِ تَخَلُّصًا ... مِنْ بَعْدِ مَا أَنْشَبْنَ فِيَّ مَخَالِبَا؟
أَوْحَدْتَنِي وَوَجَدْتُ حُزْنًا وَاحِدًا ... مُتَنَاهِيًا فَجَعَلْتَهُ لِي صَاحِبَا
وَنَصَبْتَنِي غَرَضَ الرُّمَاةِ تُصِيبُنِي ... مِحَنٌ أَحَدُّ مِنَ السُّيُوفِ مَضَارِبَا
أَظْمَتْنِيَ الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا ... مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا[30]

هذه صورة تشعرنا بوطأة الشاعر تحت ثقل الخطوب والنوائب التي لا يجد سبيلًا للخلاص منها؛ لأنها نفذت حكمها فيه، وحققت غايتها منه، إذ تركته وحيدًا بعد أن فرّقت بينه وبين الأحبة، وجعلت صاحبه من بَعْدِهم متمثلًا في حزن الفراق الذي رماه في غياهب اليأس والأسى، فأصبح هدفًا يرمى بالمحن، وأما حظه من الدنيا فلم يكن إلا الحرمان، ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان هينًا مقبولًا، لكنه كلما حاول أن يلتمس العطاء، أو التخلص مما هو فيه صبّت عليه مزيدًا من المصائب، وأفرغت عليه مطرًا من النوائب، ولا أرى في هذه الصورة إلا تمهيدًا لما سيأتي من صور، وكأن الشاعر يريد أن يضخم الحدث، ويزيد من وطأة ثقله على الإنسان الذي يرى حتمية الأشياء، واستسلامه لمصائرها، تسيره ولا شأن له بها، يسلم لها قياده بعبودية مطلقة، وهذا ما يتوافق مع الواقع والمنطق والعقل، ويبدو الإنسان هنا مقهورًا، مغلوبًا على أمره، كلما حاول النهوض أنكسته الدنيا، وزادت في عنادها، يقول: [من الطويل]

فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا طِلَابِي نُجُومُهَا ... وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شُدُوقِ الأَرَاقِمِ[31]

لا تسعف الدنيا الإنسانَ في أموره، ولا تعينه على تحقيق مطالبه، ولذلك كان من حقه أن يشكوها، ويضجر منها، فها هو ذا يسعى إلى معالي الأمور من شرف ومجد؛ لتحقيق الذات، ونيل ما تصبو إليه النفس، لكن الدنيا تعاكسه بنوائبها، وتدفعه تجاه مصائبها، وقد دفعه الانفعال والمعاناة إلى تشبيه تلك الخطوب والنوائب بأشداق ذكور الحيات السامة

---

[30]- انظر قوله (201/4): [من الوافر]

لَقَدْ حَسُنَتْ بِكَ الأَوْقَاتُ حَتَّى ... كَأَنَّكَ فِي فَمِ الدَّهرِ ابتسامُ

المصدر السابق: ص: 251/1-252. (أنشبن: علقن).

[31]- المصدر السابق: ص: 237/4.

القاتلة التي لا نجاة منها، ويشعر الشاعر بأنه إذا أراد الأمر الخطير، وهمَّ القيام به، وحاول إدراكه فإن الليالي تصارعه وتحول بينه وبين ما يهمُّ به، يقول: [الطويل]

أَهُـــمُّ بِشَـــيءٍ وَاللَّيَالِـــي كَأَنَّهَـــا تُطَارِدُنِـــي عَـــنْ كَوْنِـــهِ وَأُطَـــارِدُ[32]

هذه صورة تمثل مطاردة فيها كرّ وفرّ، فالليالي تطارده للحيلولة دون الوصول إلى الغاية، وهو يطاردها أملًا في إبعادها عن سبيله؛ لتحقيق هدفه، فهما في سجال مستمر، يتبادلان المواقع والحالات، ومهما يكن من أمر فإنه يشعر بأنها قد نجحت إلى حدّ ما في حرمانه، وإلحاق خسارة كبيرة به، يقول: [من البسيط]

لَيْـتَ الْحَـوَادِثَ بَـاعَتْنِي الَّـذي أَخَـذَتْ مِنِّـــي بِحِلْمِـــي الَّـــذِي أَعْطَـــتْ وَتَجْرِيبِـــي!

فَمَـــا الْحَدَاثَـــةُ مِـــنْ حِلْـــمٍ بِمَانِعَـــةٍ قَـــدْ يُوجَـــدُ الْحِلْـــمُ فِـــي الشُّـــبَّانِ وَالشِّـــيبِ[33]

يمثل هذان البيتان مدى الصراع الذي يدور في نفس الشاعر، ذلك أن حدثان الدهر ونوائبه سلبت منه الشباب، وأعطته الحلم والتجارب، لكنه يتمنى لو أنها باعته ما أخذت منه بما أعطته، فردت عليه شبابه، واستردت حلمه الذي هو عقله وأناته، ذلك أن حداثة الشباب لا تحول دون الحلم، ويبدو الشاعر هنا أنه مقهور مسيَّر مغلوب على أمره، لا يملك من أمر نفسه شيئًا لا في الأخذ ولا في العطاء، إنها تجربة شعورية انفعالية مبدعة، تمثل صورة مؤلمة للإنسان الذي يُعطي بيد، ويؤخذ منه باليد الأخرى، قسمة غير عادلة؛ لأنه يُعطى الشيء النزر اليسير وهو ما يمكن الحصول عليه في أية مرحلة من مراحل الحياة، عن طريق التجربة والخبرة، ويؤخذ منه الشيء العظيم وهو ما لا يمكن استرداده، أو التعويض عنه بأية وسيلة مهما كانت، وهذا يمثل خسارة كبيرة، ذلك أن ما يُعطى هو رجحان بالعقل، ومزيد من صبر، وتجربة فيها قسوة وظلم، وهذا يجعل الإنسان يعي ما حوله، بل يدرك كل ما يقع عليه ويحيط به، فهي لحظة إدراك عقلي ترسل إلى صاحبها الإشارات بضرورة التحمل، وعدم المقاومة أو المجابهة مهما كانت الأحوال والظروف، وما على الإنسان إلا أن يصبر وإن كان ينظر بعينه، ويرى اليأس والقنوط ماثلًا أمامه؛ لأنه يفقد بل يُسلب الشباب ونضارته شيئًا فشيئًا، ولم يخيّر الشاعر بين البيع والشراء، فهما عمليتان تقومان على اتفاق بين طرفين، ولكن المعضلة في أن

---

[32]– المصدر السابق: ص: 392/1.

[33]– المصدر السابق: ص: 293/1. ويرى الشاعر أن الحادثات تنزل على الشاب والشيخ على حد سواء، فلا بياض الشعر موجبًا للموت، ولا سواد الشعر واقيًا منه، فقد يعيش الشيخ ويموت الشاب، يقول:[من الكامل]

ولقـــــدْ رأيـــــتُ الحادثـــــاتِ فـــــلا أَرَى ولقـــــدْ رأيـــــتُ الحادثـــــاتِ فـــــلا أَرَى

انظر: المصدر السابق 251/4. (واليقق: الأبيض. ويعصم: يحمي). يَقَقًا يُميتُ ولا سوادًا يَعْصِمُ

الشاعر أُكره على التنازل، بل أُخذ منه أعز ما يملك عنوة ، فما أخذته الدنيا غير قابل للمساومة، وقد أعطت –حيلة– من أجل القبول بما تريد أن تنزعه عنوة أو إكراهًا، ولذلك نجده يبدأ البيت الأول بالتمني أن يقوم الدهر بالموافقة على بيع ما أَخذ مقابل ثمن يراه الشاعر باهظًا وجديرًا بأن يلاقي استحسانًا وتقديرًا عند الطرف الآخر، وهو العقل والحلم والأناة، ولكن هيهات أن تجد هذه الأمنية أذنًا صاغية، ترد السليب لصاحبه، والسؤال: لماذا يريد الشاعر أن يشتري ما أُخذ؟ الجواب: لأنه وجد ما أُعطي من حلم وتجارب لا يساوي الشباب الذي أُخذ؛ لأن الحلم قد يكون في الشباب والمشيب على حدّ سواء، إذن، احتفظت الدنيا بالشباب الذي هو غايتها، وأعطته مما أَخذت منه وهو الحلم؛ ليعينه على تحمل مصائبها بالإضافة إلى المشيب الذي يمثل العجز والقهر واليأس، ويعدّ هذا نوعًا من التمهيد، إذ يقوم الدهر بتنفيذ خططه على مراحل، ويجرع نوائبه الواحدة تلو الأخرى على جرعات، فهذه مرحلة أخرى من تلك المراحل، يقول: [من البسيط]

لَـمْ يَتْـرُكِ الـدَّهْرُ مِـنْ قَلْبِـي وَلا كَبِـدِي شَـــيْئًا تُتَيِّمُـــهُ عَيْـــنٌ وَلا جِيـــدُ

مَـــاذا لَقِيْـــتُ مِـــنَ الـــدُّنْيَا وَأَعْجَبُـــهُ أَنِّـــي بِمَـا أَنَـا بَـاكٍ مِنْـهُ مَحْسُـودُ؟[34]

إن أحداث الدهر ونوائبه نزعت من قلبه وأعماقه هوى العيون والأعناق التي كنّى بها عن الحب والعشق، فالدهر لم يترك له شيئًا من ذلك يميل به إليها؛ لأنه غادر اللهو وترك الغزل، استعدادًا للجد والعزيمة، لكنه يشكو تصاريف الدهر ونوازله، ويبين أنه أعجب ما لقيه من الدهر أنه محسود بما يشكوه، ويرى أن الشعراء يحسدونه على انقطاعه لكافور الإخشيدي، وهو علة شكايته وسر بكائه، ولعل المقابلة في الشطر الثاني من البيت الثاني بين الشكوى والحسد تُجسد مدى المعاناة النفسية عنده، وهي أشد في قساوتها من شدائد الدهر وأحواله، "ولعلنا إذا أنعمنا . النظر في هذه الصورة . يتحقق لنا أن المتنبي لم يكن ينقم في هذه القصيدة؛ لأن كافورًا لم يغدق عليه، بل إن نقمته كانت تتعدى كافورًا، أو ترمز به إلى ما هو أعم وأشمل إلى الحياة، فالشاعر يحقد على الدنيا كما يحقد على كافور؛ لأنها ليست أقل بخلًا عليه منه. لقد انطلق الشاعر من كافور إلى الدنيا، متسائلًا عما لقي منها، فالفشل الذي شعر به في مصر أذكى في نفسه حسرة أيامه الماضية، فبدا له أنه ما انفك طيلة حياته يلاحق سراب الأماني المخادعة، يحسده الناس، ويتواطؤون عليه بينا هو يعيش في جحيم من نفسه".[35]

---

[34]– المصدر السابق: ص: 141/2–142؛ (يقول العكبري: وهذا من قول الحكيم: استبصار العقلاء ضد لتمني الجهلاء. فالجاهل يحسد العاقل على ما يبكيه. فالحال التي يبكي العاقل منها يحسده الجاهل عليها. ولقد نظمه أبو الطيب فأحسن. ومنه: رب مغبوط بدواء هو داؤه). انظر: شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي: العكبري، ص: 41/2؛ يقول الحاتمي: أخذ المتنبي هذا من أرسطو؛ انظر: الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي من شعره كلام أرسطو في الحكمة: ص: 64.

[35]– في النقد والأدب: إيليا الحاوي، ص: 251/3.

لا شك أن موضوع الشكوى قد احتل حيزًا كبيرًا في ديوان المتنبي الذي يرى أن الصراع بينه وبين الدنيا طويل، ولا أمل في انجلاء سحائبها التي تمطر المصائب دون انقطاع، يقول: [من الطويل]

لَحَا اللّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِراكِبٍ فُكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ
أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلا أَشْتَكِي فِيهَا وَلا أَتَعَتَّبُ!؟
وَبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّي أَقَلُّهُ وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قُلَّبُ! [36]

هذه صورة أخرى من الشكوى، يطلب فيها من الله أن يقبح هذه الدنيا ويلعنها؛ لأن من كان فيها بعيدًا في مرتقى الهمة كان أشد نصبًا فيها، وهو ينظم قصائده التي لا تكاد قصيدة منها تخلو من شكاية الدهر وعتابه، من أجل أن يبلغه مراده، وينيله ما يطلب، فإذا ما تحقق له ذلك ترك الشكاية، ويرى أن به من هموم الدهر ونوائبه ما يمنع الشعر، ولكن قلبه حسن التقليب للأمور، لا يضيق بحدثان الدهر ونوازله، فهي لا تؤثر على إبداعه الشعري.

هذه صورة متوازنة، تغادر التعبير بالألفاظ عن الدنيا التي تأتي بالنوائب، فاللفظ النقلي لم يعد هو المقصود، والشكوى من الدنيا لم تعد مقتصرة على كل إنسان، والناس فيها فريقان، الأول: قد يشكو فيها منها، لكنه غير معذب، والآخر: هو صاحب الهمة والعزيمة الذي يلحق به العذاب، فمن حقه أن يشكو، وهذا يمثل كشف الظواهر، والتعمق فيها، والوصول إلى كنهها، والانفعال بها انفعالًا يحقق ملامسة الوجود الحقيقي لها، فشكوى الشاعر من الدنيا نوع من العتاب للدنيا؛ لوقوفها دون تحقيق الغايات، ونيل المطالب، فإذا ما تحققت الغايات، ونيلت المطالب، فليس هناك ضرورة للشكاية، وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الإنسان الذي يرضى بواقعه لا تقف الدنيا في طريقه ولا تعانده؛ لأنه ليس من أصحاب الهمم التي تنتزع من الدنيا، وكأنه يريد أن يقول: إن الدنيا لا تعارض إلا من ينافسها فيما تملك، فإذا أدركت ذلك من الإنسان صبت عليه نوائبها، والشاعر من أصحاب الهمم لا يألو جهدًا في منافستها، ولذلك تناصبه العداء، وهو قادر على تحمل نوازلها، بل مصمم على تحملها ومجابهتها، ولن تحول هذه النوازل ولا تلك المصائب –التي تسلب الإنسان عواطفه، وتنسيه أفكاره– دون إعمال فكره، وإلهاب عاطفته، وشحذ خاطره، من أجل امتلاك المقومات –من تصميم وعزيمة وخبرة ...– التي تعينه على صوغ أفكاره، ونظم أشعاره.

---

[36]– شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 304/1. يبدو أن الزمان قد حال بينه وبين نظم الشعر، ولذلك يرى أن الذنب ذنب الزمان لا ذنبه؛ لأنه أورثه الهم، وألحق به الإساءة، فسبب انقطاع الشعر عن ممدوحه سيف الدولة، فهو لا دخل له بهذه التبعات التي وقعت عليه، يقول (198/2): [من المتقارب]

فَلا تُلْزِمَنِي ذُنُوبَ الزَّمَانِ إِلَيَّ أَسَاءَ وَإِيَّايَ ضَارَا

هذه صور من مقدمات كانت بين التقليد والتجديد، تفضي بنا إلى موضوع آخر هو تحمل كل ما يصدر عن الدنيا، وتنزله من نوازل...

تحمله لنوائب الدهر ومصائب الدنيا وقساوة الزمان وحوادث الليالي وغيظ الأيام:

لم تعد الشكوى مجدية؛ لأن تكالب الأيام، وتعاقب الليالي، تترصده، وتتعمده، فلا بدّ من التحلي بالصبر، وتحمل تبعات ما يصدر عنها؛ لأن الصراع طويل، والمعركة مفتوحة على جميع الجبهات، فقد تتبدل الأمور، وتتغير من حال إلى حال، لكنها ممعنة في الثبات، لا في الهرب، أو الاستسلام، ما دامت ترهق وعي الإنسان، وتلحق به الضيم والقهر واليأس، وتسيطر عليه، وتخذله، وتولد عنده معاناة تلو الأخرى، دون انقطاع، ظنًا منها أن الإنسان لا يطيق التحمل أمام وطأة الأشياء، وثقلها، وأملًا في توليد السأم والضجر اللذين يولدان القهر والهزيمة، وهي تلاحقه في حله، وترحاله، يقول: [من الكامل]

شِيَمُ اللَّيالِي أنْ تُشَكِّكَ نَاقَتِي صَدْرِي بِهَا أَفْضَى أَمِ الْبَيْدَاءُ؟؟[37]

صراع بينه وبين الليالي التي من عادتها أن تحول دون تحقيق مطالبه، فترميه بطول الأسفار، حتى إنها تحمل ناقته على الشك فيه، ثم يتساءل: أصدري بها لو جعل مكان البيداء أم البيداء أفضى وأرحب؟ إنها تعلم علم اليقين، وترى بأم عينها سعة صدره، وأناته في الملمات، وصبره على المشقات، وتحمله الشدائد، وتجلده في الأسفار، إنه رابط الجأش، يتلقى المصيبة تلو المصيبة، بعزم وثبات، يقول: [من الوافر]

أَبِنْتَ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الزِّحَامِ!؟[38]

إنه ينوء بوطأة الشدائد على اختلاف أنواعها، ولذلك يسأل الحمى التي هي من بنات الدهر كيف تمكنت من الوصول إليه، على الرغم من ازدحام الآلام والنوائب، إنها صورة تدل على قدرة تحمل عجيبة، وما هذه الصورة إلا واحدة من تلك الصور الكثيرة التي تمثل المعاناة في نفسيته، يقول: [من البسيط]

---

[37]- المصدر السابق: ص: 144/1. (البيداء: الفلاة).

[38]- المصدر السابق: ص: 144/1. (بنت الدهر: الحمى. وبنات الدهر: الشدائد)، إن أرزاء الدهر كثيرة، تتابعت على قلبه حتى لم يبق منه موضع إلا أصابه سهم منها فصار في غلاف من سهام الدهر، فإذا ما رميت فإنها لن تصل إلى قلبه لأنها لن تجد موضعًا للإصابة، فتتكسر نصالها على النصال التي قبلها، وهو لم يعد يبالي بالدهر ومصائبه؛ لأنه لا ينفع الحذر في مثل ذلك، ويقول: [من الوافر]

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نِبَالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسرتِ النصالُ على النصالِ
وهانَ فما أبالي بالرّزايا لأني ما انتفعت بأن أُبالي

انظر: المصدر السابق: ص: 3/141-142

أَذاقَنِـــي زَمَنِـــي بَلْـــوَى شَرِقْـــتُ بِهَـــا لَـو ذَاقَهَـا لَبَكَـى مَـا عَـاشَ وَانْتَحَبَـا[39]

إن الزمان يواجه المتنبي . شأنه شأن الآخرين . لكنه لم يخضعه رغم قساوته وشدته، والمتنبي يدرب نفسه على تحمله شيئًا فشيئًا تمهيدًا للمواجهة، وهذا نوع من ترويض النفس على تحمل الشدائد ومواجهتها، وحسن التعامل معها، لا الرضوخ لها، فها هو ذا يذوق من الزمان البلوى، والشدة من فقر وغربة، لو ذاق الزمان ما ذاقه الشاعر؛ لبكى وانتحب ما بقي وامتدت حياته، ولما تمكّن من الثبات والصبر من هول المصيبة، فكيف يصبر هو على ذلك؟ هذه إطلالة تمثل نظرته إلى الحرية، عن طريق التحمل والصبر، من أجل حياة ينعم بها دون قسوة واستبداد، ومن سعى إلى التحرر من عبودية ما يشكو منه، فلا بد أن يتقبل كل المفاجآت، ويتكيف مع المتغيرات، يقول: [من الطويل]

وَفِـي الْجِسْـمِ نَفْـسٌ لا تَشِـيبُ بِشَـيْبِهِ وَلَـوْ أَنَّ مَـا فِـي الْوَجْـهِ مِنْـهُ حِـرَابُ
يُغَيِّـرُ مِنِّـي الـدَّهْرُ مَـا شَـاءَ غَيْرَهَـا وَأَبْلُـغُ أَقْصَـى الْعُمْـرِ وَهْـيَ كَعَـابُ[40]

الشيب رمز من رموز الضعف والعجز، لكنه وإن بدا على الجسم، وظهرت مظاهره في الشعرات البيض في الوجه كالحراب، فإن النفس تبقى شابة أبدًا في همتها تسعى إلى مراقيها، لا يؤثر فيها مرور الأيام وأحداث الزمان، فهذه محاولة للانتفاض من هموم الدهر ونوائبه، وتجاهل لما يحدثه في الإنسان الذي لا يعرف طريقًا إلى الرضوخ والاستسلام ما دام قادرًا على مواجهة الأمور بالحكمة التي تؤدي به إلى طريق النجاة، يقول: [من الطويل]

وَغَـيْظٌ عَلَـى الأَيَّـامِ كَالنَّـارِ فِـي الْحَشَـا وَلَكِنَّـــهُ غَيْـــظُ الأَسِـــيرِ عَلَـــى الْقَـــدِّ
فَإِمَّـــا تَرَيْنِـــي لا أُقِيـــمُ بِبَلْـــدَةٍ فَآفَـةُ غِمْـدِي فِـي دُلُـوقِي وَفِـي حَـدِّي
تُبَـــدِّلُ أَيَّـــامِي وَعَيْشِـــي وَمَنْزِلِـــي نَجَائِبُ لا يُفْكِرْنَ فِـي النَّحْسِ وَالسَّعْدِ[41]

هذه صورة انفعالية مبدعة، تلتقط لحظات مؤلمة، يدفع فيها الثمن غاليًا، تتناول صراعًا بين قهر الأسر، وتحرير النفس، فغيظه على الأيام يضرم في الحشا، ويلتهب في الأعماق التهاب النار واضطرامها، وهو غيظ على من لا يكترث، ولا يبالي بذلك الغيظ؛ لأن الأيام لا تشعر بحاله، ولا توافقه، بل تنزل بثقلها الذي يحول دون حرية الشعور، وتحرير الذات من العبودية، وهو يمثل لذلك بغيظ الأسير على ما يشدّ به من القيد، إنه عجز عن التحرر في ظل القيود، ومواجهة نتائجها تؤول إلى خسارة فادحة، لكنها قد

[39]– المصدر السابق: ص: 248/1. (شرقت: غصصت. وما عاش: أي ما بقي وامتد).
[40]– المصدر السابق: ص: 316/1.
[41]– المصدر السابق: ص: 162/2–163؛ (القدّ: سير يشدّ به الأسير. والدلوق: سرعة انسلال السيف وخروجه من غمده).

تتبدل وتتغير تبعًا لمقدار التحمل والصبر اللذين لا مفرّ منهما، إذ يقودان إلى استشعار بصيص الأمل في التخلص ونيل الحرية، فالشاعر مصمم على ذلك بطرقه الخاصة، ذلك أنه إذا انزعج من الإقامة في بلد وتضايق، فإنه ينتقل منه إلى بلد آخر، لمضائه وبعد همته التي شبهها بالسيف الحاد إذا كَثُرَ سلّه، وإغماده مزّق جفنه وأكله، وهذا تعبير انفعالي، "هجس له في خاطره فتكلم به".[42] ويكمل هذه الصورة بما جادت به خواطره من أن النوق الكريمة يمضين به مصممات، غير آبهات بنحس، ولا سعد، ولكن تتبدل بمضيهن الأيام والمعايش والمنازل، إذن تغيير المكان وسيلة للتخلص من السأم والضيق، من أجل البحث عن فرجة فيها أمل الخلاص، إنها فلسفة لا يحسن التعامل معها إلا من يكابدها، وإن استسلم لها حينًا، واندحر أمامها حينًا آخر، ولكن النتائج بخواتيمها، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال مقدار الأناة والتحمل، وإن طالت المعاناة، دون إدراك الغايات ونيل المطالب، يقول: [من البسيط]

قَدْ ذُقْتُ شِدَّةَ أَيَّامِي وَلَذَّتَهَا فَمَا حَصَلْتُ عَلَى صَابٍ وَلا عَسَلِ[43]

هذه قضية وثيقة الاتصال بالقضية السابقة؛ لأن الشاعر يعيش الدهر بحلاوته ومرارته، فما حصل من حلوه على عسل، ولا من مره على صاب، لانقضائهما بسرعة فائقة، فكأنه لم يذق شيئًا منهما، إنها معادلة تبدو متوازنة، لكنها –في الوقت ذاته– شديدة، فالدهر يأتي بالشدة واللذة، وهما نقيضان، ينزل الأولى فتضرب بقوة وعنف، فتزلزل الأعماق، ولكنه يجود بالأخرى التي تبعث الأمل في تخفيف وطأة الأول، دون إعطائها فرصة للاستقرار، لكنها أحدثت ما أحدثته من قهر وأسى، فتنسي المرارة والعذاب لحين، فإذا ما أراد الشاعر أن يتمتع بالحلاوة التي قد تغيب الألم ولو للحظات، فإنها تُردف من جديد القسوة التي تضيع ذلك التذوق الشعوري باللذة، ومن يكن تحت وطأة الألم فإنه لا يشعر بطعم السعادة وإن حضرت؛ لأن مرارة الألم تبقى كفيلة بتنغيص الأمل في تذوق السرور والشعور بالفرحة، ويظلّ تعاقب الأدوار بين النقيضين قائمًا، لا يستقر على حال واحدة، وهذا يعني اضطرابًا في النفس، وتشتتًا للذات، وعدم ثبات الحال، وليس هناك أشد من هذا الوضع، وإن كان يفضي إلى التعادل الظاهر في عدم تذوقهما في حالتيهما، ويبدو لي أن الشاعر يتحمل الأولى بكل ما تنطوي عليه من مرارة، ويتوق إلى الأخرى لما تحويه من لذة، وهو غير قادر على الاحتفاظ بأي منهما، ما يجعله يعيش المتغيرات المفروضة عليه، ويرضخ للقبول بالواقع المجبر عليه، ولذلك يبدي الشاعر نوعًا من الضيق بوطأة العالم الخارجي الذي يتعمد إلحاق الأذى به، ويتمادى بكل ما يملك من أثقال وأحمال،

[42]– شرح ديوان أبي الطيب المتنبي: الواحدي، ص: 752.

[43]– شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 201/3. (الصاب: شجر مرّ).

ويَتنوَّخَ بها على الإنسان؛ لتظل جاثمة عليه دون إعطائه بصيصًا لأمل في الحرية، أو تقريرًا لمصير، وهذا شأنه شأن غيره ممن سبقه، يقول: [من الوافر]

كَـــأَنَّ الْحُـــزْنَ مَشْغُـــوفٌ بِقَلْبِـــي فَسَاعَـــةَ هَجْـــرِهَا يَجِـــدُ الْوِصَـــالا
كَـــذَا الدُّنْيَـــا عَلَـــى مَـــنْ كَـــانَ قَبْلِـــي صُـــرُوفٌ لَـــمْ يُدِمْـــنَ عَلَيْـــهِ حَـــالا[44]

هذا صراع من نوع آخر، أطرافه ثلاثة: الشاعر، والحزن، والحب، فالأول: هدف للطرفين الآخرين، وهو ميدان الصراع لهما، وهو المتحمل لتعاقبهما، ويبدو كأنه الأضعف، لكنه لا بدّ له من الصبر، والثاني: يتربص من كثب، ويترقب بشغف، مستعدًا للحظة الانقضاض والهجوم، للسيطرة التامة لا المشاركة والمعايشة المسالمة، وهو يمثل الأنانية والانتهازية والغدر، ليس فيه رحمة ولا شفقة، وأما الأخير: فإنه يمثل من وجهة نظرنا الحزن أيضًا بسبب الهجر، وعدم الوصال، فإذا ما هجر الحبيب قلب الشاعر، واصل الحزن قلبه، وعلق به، ونلاحظ أنه مهما تعددت الأطراف، وتنوّعت العناصر، واختلفت المظاهر، فإنها تمثّل صورة ممتلئة بالحزن والأسى، انبثقت من معاناة نفسية، في لحظات

---

[44]– المصدر السابق: ص: 341/3. وهناك أمثلة كثيرة توضح هذه الفكرة، منها أنه يطلب من الدنيا الإنصاف، ويشكو إليها مرارة الفراق ، لكنها هي السبب في ذلك كله؛ لأنها تبعد الحبيب المواصل، فكيف تقرب الحبيب المقاطع؟ ويرى أنها تأبى أن تديم حبيبًا على وصاله، يقول (119/2): [من الطويل]

أَودُّ مـــنَ الأيَّـــامِ مَـــا لا تَـــوَدُّهُ وأَشْكُـــو إليهـــا بيننـــا وهـــيَ جُنْـــدُهُ
يُباعِـــدْنَ حُبّـــاً يَجْتَمِعْـــنَ ووصْلُـــهُ فكيـــفَ بِحُـــبٍّ يَجْتَمِعْـــنَ وَصَـــدُّهُ؟
أَبَـــى خُلُـــقُ الدُّنْيَـــا حَبِيبـــاً تُدِيمُـــهُ فمـــا طَلَبِـــي منهـــا حبيبـــاً تَـــرُدُّهُ

إنه يقدم لنا قصيدة رائعة في الحكمة تبين رأيه في الدهر، وفلسفته التي يتبناها تجاهه، ويستطيع القارئ أن يتلمس فلسفة المتنبي في هذه الأبيات التي يقول فيها: [من الخفيف] (المصدر السابق 4/ 370–372).

صَحِـــبَ النّـــاسُ قَبْلَنَـــا ذَا الزَمانـــا وعناهُـــمْ مـــن شأنِـــهِ مَـــا عَنَانَـــا
وتَوَلَّـــوْا بِغُصَّـــةٍ كلُّهُـــمْ مِنْـــ ـــهُ وإنْ سَـــرَّ بعضَهُـــمْ أحيَانَـــا
ربّمـــا تُحْسِـــنُ الصَّنِيـــعَ ليالِيـــ ـــهِ ولكـــنْ تُكَـــدِّرُ الإحْسانَـــا
وكأنّـــا لـــمْ يَـــرْضَ فينـــا بِرَيْـــبِ الدَّهْـــ ـــرِ حتَّـــى أعانَـــهُ مَـــنْ أعَانَـــا
كلَّمـــا أنْبَـــتَ الزَّمـــانُ قَنَـــاةً رَكَّـــبَ المَـــرْءُ فـــي القَنَـــاةِ سِنَانَـــا
ومـــرادُ النَّفُـــوسِ أَصْغَـــرُ مـــن أنْ نَتَعَـــادَى فيـــهِ وأَنْ نَتَفانَـــى
غَيْـــرَ أنَّ الفتَـــى يُلاقِـــي المنايَـــا كَالِحَـــاتٍ ولا يُلاقِـــي الهَوانَـــا
ولَـــوَ انَّ الحيـــاةَ تَبْقَـــى لِحَـــيٍّ لَعَـــدَدْنَا أَضَلَّنَـــا الشُّجْعَانَـــا
وإذا لـــم يَكُـــنْ مِـــنَ المـــوتِ بُـــدٌّ فمـــنَ العجـــزِ أنْ تَكُـــونَ جَبَانَـــا
كُـــلُّ مـــا لَـــم يَكُـــنْ مـــنَ الصّعْـــبِ فـــي الأنْـــ ـــفُسِ سَـــهْلٌ فيهـــا إذا هُـــوَ كَانَـــا

انفعالية، ربطت بين المتناقضات والمتباعدات بوشائج قوية، حتى غدت متآلفة في صورة كلية واحدة، وكذا شأنها على من كان قبله، وهو يراها ويشاهدها كما كانت، وكأنه يريد أن يقول: مهما تعاقبت الأيام، ومضت السنون، وتغيرت الأحوال فإن الحزن هو الحزن، والصراع بين الدهر والإنسان، هو صراع لا أمل في انجلائه وتغييره والانتصار عليه، لذلك يرى أنه لا بدّ من التعامل معه بكل صبر وأناة، يقول: [من البسيط]

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لَذَّتُهَا فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الأَلَمِ؟
الدَّهْرُ يَعْجَبُ مِن حَمْلِي نَوَائِبَهُ وَصَبْرِ نَفْسِي عَلَى أَحْدَاثِهِ الْحُطُمِ[45]

هذه معاناة أخرى تتمثل في التعجب من أن الله – سبحانه وتعالى– جعل لذته في قطع الفيافي وتحمّل الصعاب باقتحام المهالك، وهذا غاية ألم النفوس، فالصراع الذي يخوضه الشاعر، هو صراع من أجل تحقيق الذات، وإرضاء النفس التي تتطلع إلى نيل المطالب، والوصول إلى الغايات، وهذا لا يتحقق إلا في "النفس الشريفة التي ترى الموت بقاء، لدركها أماكن البقاء، وهذه حالة تعجز الخلق عن ركوبها"،[46] ذلك أن النفس العظيمة هي تلك النفس التي تخوض غمار الصعاب بكل ثبات وعزيمة، وتقتحم المهالك بكل صبر وتضحية، وهذا ما يمثل لها اللذة والعزة والإباء، فهو يقسم الناس في هذه الدنيا إلى قسمين:

---

[45]– المصدر السابق: ص: 295/4. (الحطم: التي تحطم من ألمت به). وقد أتبع هذين البيتين ببيتين آخرين هما:
وقتٌ يضيعُ وعُمْرٌ ليت مدَّتَهُ في غير أُمَّتِهِ من سالفِ الأُمَمِ
أَتَى الزمانَ بنوهُ في شَبيبتِهِ فَسَرَّهُمْ وأَتَيْنَاهُ علَى الهَرَمِ
انظر: شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي، العكبري 163/4.
هذه شكوى من أهل الدهر الأنذال الذين يتأسف على ضياع وقته في معاشرتهم. فوقته ضائع في هذه المصاحبة التي يأسف عليها، ويتمنى لو كان قد قضّى عمره في أمة أخرى من الأمم السابقة التي تقدر الرجال وتعرف مكانتهم وتنزلهم منازلهم، لما وجده من الدهر الذي أتى القدامى فسرهم بما يفرحون، ولكنه أتاه وقد هرم ولحق به الخرف فلم يجد عنده ما يسره. إن معاناته من الدهر وأهله جعله يغبط بل يحسد القدامى، ويرى أنهم حصلوا من الزمان ما أرادوه، وكأن الزمان كان شابًا كريمًا، يعطي بلا حدود، يجود بسخاء عليهم، ولما تقدم العمر بالزمان فشعر بالهرم، ولحق به الخرف، خشي على نفسه من ذلك الكرم الذي يراه تبذيرًا، وهو أمس الحاجة به إليه؛ لأنه لا بد من ادخاره، إذ أصبح عاجزًا عن تحقيق السعادة لنفسه ولغيره، وغير قادر على كسب المال في هذا العمر الذي لا يسعفه في جمعه. ولذلك لم يعد يكرم كما كان ، مما دفعه إلى البخل في كل ما يملك، أو كأنه ندم على ما قام به؛ لأن ما فعله ليس من عادته، وكأني أشعر بأنه كان في حالة الزهو، والنشوة التي تسيطر على الشباب؛ لأن ديدنه التكرم بالنوائب والسخاء بالمصائب، وهذا ما يتعارض مع ما أوردناه من أمثلة بينت أن الدهر هو الدهر والزمان هو الزمان في كل وقت وحين، وعلى أية حال فإن ما نراه هنا هو أن المتنبي يقسم الناس في الدنيا إلى قسمين، هما: سعيد وتعيس، فالسعادة عاش فيها القدماء، والتعاسة عاش فيها المعاصرون، والمتنبي مما لا شك فيه عاش في القسم الأخير، الذي يقسمه أيضًا إلى قسمين: أصحاب الخسة، وأصحاب العزيمة والهمة، وهو يتفرد بالأخير دون غيره؛ لأنه يندم على ضياع وقته في مصاحبتهم لرذالتهم، كما أنه يرى أن الزمان قد مرّ بمرحلتين: الشباب والشيخوخة، ففي مرحلته الأولى أنصف القدامى وجاد عليهم بكل كرم وسخاء، وجار على المعاصرين بكل قسوة وظلم.

[46]– المصدر السابق نفسه: ص: 163/4.

الأول لذته في التضحية التي هي غاية الألم للآخرين، والآخر تخاذله وقبوله للواقع الذي هو غاية الألم للقسم الأول. والشاعر يتفرد بالقسم الأول دون غيره، ويرفض بل يحتقر الآخر، ويتعالى عليه، وهذا الوضع دفع بالدهر إلى التعجب من هذه النفس التي تتمتع بعلو الهمة؛ لأنها تمكّنت من حمل نوائبه ورزاياه، مع أنه على يقين بأن من يلمّ به يحطمه، إذن، فالقضية تتمثل في مدى الصبر، وقوة التحمل، وهما متوافران في نفس المتنبي، ولا يزال الشاعر يرسل الإشارة تلو الإشارة من أن البؤس بدأ بالانجلاء، والانسحاق أخذ في التلاشي، وهو تطور يقوم على التحليل والتفسير تمهيدًا لانطلاقة جديدة، بعد أن يلخص لنا بتعليل منطقي مقبول السر في هذا الثبات، يقول: [من البسيط]

قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَازِلَةٍ وَلَيَّنَ العَزْمُ حَدَّ الْمَرْكَبِ الْخَشِنِ[47]

ويختم الشاعر هذا الصراع بمعادلة تقوم على إيمان بواقع النفس التي يحكمها العقل، ويتحكم بها الإدراك، فالصبر هو محور التحمل للنوازل، التي تتحطم عليها صخوره، يفتتها ويجعلها سهلة هينة، والعزم يطوّع المركب الخشن، ويلين الأمور الشاقة، ولذلك لا داعي إلى الشكوى من هذه ولا من تلك، وهذا تحطيم للقوى المظلمة التي تجثم بنوازلها على النفس الإنسانية، فتحول دون تحقيق الأمل، وكسر للحواجز الحتمية التي تفرض عبوديتها، فتحرم الإنسان من التطلع إلى الحرية.

تفهمه لنكبات الدنيا، ونوازل الدهر، ومصائب الزمان وغيرها:

يعبّر المتنبي في هذا الباب عن التجارب الإنسانية وقيمها، ومدى تفهمه لتبعات الزمان وأضرابه، وضرورة التعامل معها بنوع من الروية والحكمة، وأهمية استيعاب الأسباب والدوافع، وقبول النتائج بكل إيجابياتها وسلبياتها، تمهيدًا لدراسة المعطيات التي ينتج عنها الرد المناسب في الوقت المناسب، بما هو متاح من الإعداد والاستعداد، بروية ودراية، وأناة وصبر، من أجل تجنب الوقوع في شباكها لقمة سائغة لها، ولذلك يتحتم عليه ألا يكتفي بمعرفة الدهر والتعبير عنه كما نعرفه، بل عليه أن يغوص في أعماقه؛ ليعرف أسراره، ويدرك أغواره، ويفهم مداركه، ويكتشف أبعاده وأهدافه ومراميه، من أجل الوقوف على حقيقته. وهذا ما فعله المتنبي الذي أخضع هذه العملية إلى الاختبار، ورأى أنه لم يعد العقل هو المتفرد بالتعبير عن هذه الأشياء؛ لأن العقل يتعامل معها بالتجربة والمشاهدة. وهو يعد الدهر وأمثاله رمزًا من رموز الوجود، وعلى النفس أن تخضعه للتعامل معه بصورة نفسية، وتعبير انفعالي؛ لتكشف عن ملامحه الغامضة، وهي قادرة على النفاذ إلى ما وراء الأشياء، تتعامل معها بشعور متبادل، بكل شفافية مطلقة وحساسية عميقة.

[47]– شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 344/4.

إن الدهر من وجهة نظر الشاعر قوة خارقة تمثل جبهة قوية لا بدّ من مجابهتها، لكنها سرعان ما تبدو وهمًا وسرابًا؛ لأن الشاعر بعد ما تعامل معها وأخضعها لمفهومه، أخرجها من واقعها إلى صور نفسية انفعالية، قادرة على تغيير مفاهيم راسخة في أذهان السامعين، بل هي مؤثرة في تعبيرها الوجداني النفسي... ولذلك، تحتم عليه أن يتفهم الدهر ونوازله، والزمان ومصائبه، والدنيا ونكباتها، والأيام وقساوتها، والليالي وشدائدها، وهذا التفهم هو مفتاح الغموض والانغلاق، ومن غيره لا يمكن للإنسان أن يتعامل مع هذه الأمور بطريقة فوضوية، قد تؤدي به إلى نكسات تترى، وترمي به إلى الهاوية والهلاك، بسبب الجهل أو الغرور، من أجل ذلك كان عليه أن يرصد ظواهرها، ويكشف أسرارها، يقول: [من الطويل]

عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا فَلَمَّا دَهَتْنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْمَا
مَنَافِعُهَا مَا ضَرَّ فِي نَفْعِ غَيْرِهَا تَغَذَّى وَتَرْوَى أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَا
وَمَا انْسَدَّتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ لِضِيقِهَا وَلَكِنَّ طَرْفًا لا أَرَاكِ بِهِ أَعْمَى[48]

إن عدم معرفة ماهية الأشياء وتفهمها تأسرنا بعدم إيجاد وسيلة للتعامل معها؛ لأنها تفرض واقعها الغامض دون إمكانية لإدراك مظاهرها، وتلمس لمعانيها، ومن الأمثل التعامل بتفهم، واقتراب بحذر، وهذا هو صنيع التفاعل المتعقل؛ لكبح جماح الانفعال الثائر، وإطلاق العنان للتعبير الصادر عن المعاناة النفسية الصادقة، فالمتنبي خبير عالم بالليالي ومكائدها، وما تسعى إليه من التفريق بين الأحبة، فلما أصابته بسهامها، ودهمته بمصائبها، لم تزده علمًا على علمه بها؛ لمعرفته السابقة بما تصنعه، ولذلك فهو لم يتفاجأ بصنيعها؛ لأنه "من نظر بعين العقل ورأى عواقب الأمور قبل حلولها لم يجزع بحلولها"،[49] فمنافع الأيام تتحقق في إلحاق الغدر في غيرها، ذلك أن غذاءها وريها في أن تجوع أيها المخاطب وتظمأ لولوعها بالإساءة بنا كأن ريها وشبعها في جوعنا وظمئنا"،[50] والشاعر لا يرى أن مسالك الدنيا قد انسدت وضاقت عليه، ولكن لفقده جدته التي ماتت، ولم يرها صار كالأعمى.

إنها خطوة تعليلية تقوم على كسر الرتابة والجمود، في فهم الأمور، وإدراك عواقبها، فالصراع لم يعد بين الشاعر والدهر على وجه التحديد، وإن كان طرفًا فيه؛ لأنه تمكن من فهمه، والتعامل معه، ولكن الصراع الحقيقي يتمثل في معاقبة النفس –التي أولجها

[48]– المصدر السابق: ص: 4/229–232.
[49]– شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي: العكبري، ص: 4/104.
[50]– شرح ديوان أبي الطيب المتنبي: الواحدي، ص: 261.

طرفًا ثالثًا في الصراع– على ارتكاب تقصير في حق الآخرين؛ لعدم مساندتهم والوقوف معهم، إذ وجد أن الموت والفناء هو أعظم قساوة، وأشد ظلمًا من مصائب الأيام، وما لم تتمكن نوائب الدهر ونوازل الأيام من تحقيقه، أدركه الموت بكل سهولة ويسر، بل كان أقسى منها في ضرباته التي جعلته كالأعمى لا يبصر الأشياء من أجل تفهمها وإدراكها، ومع ذلك فهو لم يأمن جانب الدهر، يقول: [من الطويل]

أَلا لا أُرِي الأَحْـدَاثَ حَمْـدًا وَلا ذَمَّـا فَمَـا بَطْشُـهَا جَهْـلًا وَلا كَفُّهَـا حِلْمَـا[51]

يمثّل هذا البيت نظرة اعتدالية، فيها اعتراف بالواقع على الرغم من المتغيرات، وتفهم لحتمية الأشياء، وما ينتج عنها، واستسلام للظواهر الشاخصة في العالم الخارجي، وكأنه يبدي نوعًا من المهادنة تجاهها، فهو لا يحمد الحوادث السارة، ولا يذم الضارة منها، فإذا بطشت وأخذت غلابًا، وألحقت الضرر فلا يعد ذلك جهلًا منها، وإذا كفّت عن البطش لم يكن ذلك حلمًا منها؛ لأن الفعل في الحالتين ليس لها، وإنما تنسب الأفعال إليها استعارة ومجازًا،[52] وهذا يدفعه إلى ردّ الاعتبار لنفسه، إذ بدأ ينزع إلى الفكرة التي عانى منها كثيرًا، ولا أرى في ذلك إلا نوعًا من الشذوذ في هذا الإيمان لديه، فهي طفرة اصطادتها خواطره؛ لأنها تمثل نظرة البداهة والثبات في شعره، بل تناقض كل ما أورده، وسار عليه الشعراء من قبله، وهي نظرة إسلامية صائبة، ونفحة إيمانية عابرة، وتوافق مع جادة الصواب، إذ لم نعثر على مثلها في شعره، فيما يخص هذا الموضوع، وعلى أية حال، فإنها تمثل ما يعاني في عالمه الداخلي الذي يطلّ به من خلال نوافذ على العالم الخارجي، لكنه سرعان ما يعود إلى ديدنه في اتهام الدنيا، وما تحمله من نوائب مفزعة، يقول: [من الكامل]

أَنْكَـرْتُ طَارِقَـةَ الْحَـوَادِثِ مَـرَّةً ثُـمَّ ٱعْتَرَفْـتُ بِهَـا فَصَـارَتْ دَيْدَنَـا[53]

هذه صورة تمثل خبرة وتجربة، وقدرة على التحمل، واعترافًا بفقدان الحرية في الاختيار، فهو ينكر حوادث الدهر التي طرقته، وأصابته في أول الأمر، معتقدًا أنها لم تقصده، متعللًا بأنها قد أخطأت هدفها، لكنها لما تتابعت دون انقطاع، وصل إلى قناعة لا لبس فيها ولا غموض بأنها قصدته هو لا غيره، وليس أمامه إلا أن يقرّ بها، ويعترف بحقيقتها،

---

[51]– شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، ص: 226/4 .

[52]– وكثيرًا ما نجد هذه الظاهرة بارزة في شعره كما رأينا، انظر قوله مثلًا(المصدر السابق399/1): [من الطويل]

بِـذا قَضَـتِ الأَيّـامُ مـا بَـينَ أَهلِهـا مَصـائِبُ قَـومٍ عِنـدَ قَـومٍ فَوائِـدُ

(يقول هكذا عادة الأيام سرور قوم مسآءة آخرين، وما حدث في الدنيا حدث إلا سر به قوم وسيء به آخرون).

[53]– المصدر السابق: ص: 329/4.

حتى أصبحت في تعمدها إياه عادة يألفها، إنها لحظة شعورية مثقلة بوطأة القهر والظلم تؤذن بانفجار يخرج ما في أعماق النفس، ويخفف معاناتها، يقول: [من البسيط]

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِي ... وَلا القَنَاعَةُ بِالإقْلالِ مِنْ شِيَمِي
وَلا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِي ... حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقُهَا هِمَمِي[54]

لم يكن من عادة المتنبي أن يزجي الآمال، ويدفع الوقت بشيء يرجوه؛ لأنه لا يقنع باليسير، فهو صاحب طموح وأمل، ولذلك يطلب الكثير، دون قناعة، لكن بنات الدهر – أي نوائبها وصروفها– لا تدعه ولا تتركه، بل تمعن في إيذائه وإلحاق الضرر به، وليس هناك من مانع يحول دون ذلك إلا دفعها عن نفسه بسدّ الطريق عليها، ولا يتأتى هذا إلا أن يتقوى بالمال والأنصار، ويكمل هذه الصورة بقوله: [من البسيط]

لُمِ اللَّيَالِي الَّتِي أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِي ... بِرِقَّةِ الْحَالِ وَٱعْذُرْنِي وَلا تَلُمِ
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبَرٍ ... فَالآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحَمِ[55]

هذه انتفاضة أولية، وتسويغ للتحدي ومقدمة للهجوم، فهو يوجه قوله لمن يلومه على فقره، بل أخذ يلح في عذله، ولم يتلمس عذرًا لذلك: لا تلمني على حالي من الفقر، وخلوي من الغنى، ومن واجبك أن تلوم الدهر الذي أتى على كل شيء أملكه فسلبه، وقد أهلكني، إذ لم يبق لدي بُلَغٌ أتبلغ بها وأنا في هذا الوضع من رقة الحال. وقد تكلفت الصبر والأناة حتى لم يبق هناك اصطبار أو تجلد، وقد آن الأوان للاقتحام؛ لأني لم أترك وسيلة للتخلص من وطأة الدهر، فيا نفسي ردي حياض الردى والمهالك في خوض الحروب حتى أحقق ما أصبو إليه، وأدرك مرادي، وأنال مطلبي، فلا يبقى اقتحام، فهذه إضاءة تنير الظلام القاتم في العالمين: الداخلي والخارجي، وتكشف عن عمق الأزمة التي يعاني منها الشاعر، لا سيما أن الدهر يواجه نفسًا أبية ترفض الذلة والقهر، وكأن الشاعر وضع يده على مكمن الداء، في الوقت الذي اكتشف فيه الدواء بعد صبر وعناء.

نلاحظ أنه بعد هذا التفهم لنوائب الدهر ومصائب الزمان قد شحن النفس، وأكسبها قوة تحمل؛ لأنه يؤمن بحتمية التحدّي والهجوم، وإذا كان قد آمن بالدفاع، إنما هو من باب استيعاب قدرة العدو المهاجم، وفهم خططه، ومعرفة مظاهره، تمهيدًا لإعلان صرخة التحدّي؛ لأنه لا يقبل في النهاية بأقل من إحراز النصر المؤزر، وأن يكون هو المسيطر دون وجود المنافس، أو النظير له.

---

[54]– المصدر السابق: ص: 4/155–156.

[55]– المصدر السابق: ص: 4/156-157. (أخنى عليه الدهر: أتى عليه وأهلكه. ورقة الحال: كناية عن الفقر. والجدة: الغنى. ولات: بمعنى ليس).

تحدي الزمن ومجابهة الدهر ومقارعة الأيام واقتحام الدنيا:

لم يعد الشاعر يتلقى شدائد الأيام، ونوائب الدهر، ومصائب الدنيا بالشكوى، ولم يعد قادرًا على تحمل ذلك . وإن كانت قد أكسبته خبرة وصلابة، ومنحته قدرة على التحمل، وعلمته الصبر والتجمل– لأنه وجد في ذلك نوعًا من القبول بالظلم، والقناعة بالهوان أمام وطأة الزمان الذي لا يرضى بأقل من تجريع خصمه كأس الموت، بعد إنهاكه بمصائبه، ورميه بسهام نوازله، والمتنبي يأبى القبول بالمفروض، فقد أخذ يعدّ العدة، ويبث في نفسه روح المقاومة، ويبعث في ذاته حياة العز والمجد، ولا يتأتى ذلك إلا بشدة عزيمته، ووثوقه بقوة نفسه من أجل الشعور بالتفوق لا التكافؤ، من أجل التحدي، لا القبول بالواقع الذي يؤدي إلى التخاذل والانسحاق، فقد آن الأوان للهجوم، ودخول حلبة الصراع لا الدفاع، إنه قرار حاسم، لا رجعة فيه، يحطم قيود الزمان، ويكسر حواجز الأيام، من أجل تحقيق الغاية، ونيل الحرية، وإثبات الذات التي تتوق إلى نشوة الانطلاق دون قيود؛ لتحلّق عاليًا فوق مشاهد البطولة التي تدير رحاها، يقول: [من الرجز]

لا أَلْحَـــظُ الدُّنْيَـــا بِعَيْنَـــي وَامِـــقٍ وَلا أُبَالـــــي قِلَّـــــةَ الْمُرَافِـــــقِ[56]

هذه صورة شعورية انفعالية رائعة، يعلن فيها التمرد على قضيتين: الأولى تمثل عدم انقياده للمحبوب والنزول عند رغباته، وهذا هو ديدنه، فإذا كان لا يميل إلى المحبوب، ولا يصرح له بما يريده، ولا يبوح له بسره، ولا يسمعه ما يسره، فإنه فاقد لكل معاني الخضوع والذل للمحبوب. والأخرى: تتولد من الأولى، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فهو لا ينظر إلى الدنيا بعين عاشق ولهان، فيذل لطلبها، وهو لا يبالي إن لم يجد فيها من يوافقه على طلب المعالي؛ لأنه قادر على القيام بذلك وحده، دون دعم، أو مؤازرة، ويرى أن الدنيا غير قادرة على فرض شروطها في المعركة الدائرة، وحسم الصراع لصالحها؛ لأن خصمها عنيد، يمتلك الشعور والتفوق، يقول: [من المنسرح]

إِنَّ نُيُـــوبَ الزَّمَـــانِ تَعْرِفُنِـــي أَنَـــا الَّـــذِي طَـــالَ عَجْمَهَـــا عُـــودِي
وَفِـــيَّ مَـــا قَـــارَعَ الْخُطُـــوبَ وَمَـــا آنَسَنِـــي بِالْمَصَائِـــبِ السُّـــودِ[57]

---

[56] المصدر السابق: ص: 98/3. (لحظه: نظر إليه بمؤخرة عينه. والوامق: المحب).

[57] المصدر السابق: ص: 386/1. (عجمتُ عوده: خبرتُ حاله). إن المتنبي صاحب التضحيات العظيمة بالنفس التي يصفها بالجلد؛ لأنه يلقى الحادثات بنفس صبورة، تحتقر الخطوب الجليلة، وتركب الرزايا الكثيرة، يقول (230/3): [الطويل]

وإنَّـــا لَنَلْقَـــى الْحَادِثَـــاتِ بِأَنْفُـــسٍ كَثِيـــرُ الرَّزَايَـــا عِنْـــدَهُنَّ قَلِيـــلُ
يَهُـــونُ عَلَيْنَـــا أَنْ تُصَـــابَ جُسُومُنَـــا وَتَسْـــلَمُ أَعْـــرَاضٌ لَنَـــا وَعُقُـــولُ

وهو يرى إن رماه الدهر بنوائبه عن قرب، فإنه سيجده غير جبان ولا ساقط فاشل، يقول (297/2): [من البسيط]

إِنْ تَرْمِنِـــي نَكَبَـــاتُ الـــدَّهْرِ مِـــنْ كَثَـــبٍ تَـــرْمِ أَمْـــرًا غَيْـــرَ رِعْدِيـــدٍ وَلا نِكِـــسِ

مرَّ معنا مجاراته للزمن، وتحمله لنوائبه، وكان لهذه الدروس والعِبَر في التمرس أثر بالغ في المجابهة، فمصائب الزمان خَبَرت حاله، وعَجَمْت عُودَه، وعَرفت أمره، فوجدته صلبًا لا يتزعزع، ولا تؤثر فيه الإحن، ذلك أن صبره على النوائب عرفه الزمان الذي قارعه الشاعر برباطة جأشه وأناته، ودفعه عن إضعافه، ودرأه عن إلحاق الوهن والضعف به، وقد آزره في ذلك وشدّ من عضده، طول إلفته للنوائب، ما جعله يأنس بها غير آبهٍ بتبعاتها، والجدير بالذكر أن روح الحرية التي يؤمن بها المتنبي لا تتحقق إلا بالقوة والمجابهة لا بالدفاع، ولذلك نجده دائمًا في تحدّ يتبعه بهجوم، واثقًا من حسم النتيجة لصالحه؛ لأنه يؤمن بأن من ملك القوة، عليه أن يبادر بالهجوم، يقول: [من الطويل]

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيتُهُ عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قَوَائِمُهْ[58]

لقد حان موعد خوض غمار صروف الدهر وحوادثه، من أجل تحقيق الطموح، ونيل المطالب، فالمخاطر لا يعبأ بها على الرغم من المعاناة التي يلقاها منها؛ لأن عزمه هو مركوبه الذي يرحل به، فيوجهه أينما شاء، وحيثما أراد، فهو قادر على اجتياز أهوال الصعاب، إذ لم يعد للزمان مقدرة على التأثير في اتخاذ القرار، يقول: [من الكامل]

أَعْطَى الزَّمَانُ فَمَا قَبِلْتُ عَطَاءَهُ وَأَرَادَ لِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَخَيَّرَا[59]

هذا هو موقف المنتصر الذي يتلذذ بحلاوة النصر بعد أن عانى كثيرًا وبذل أعزَّ ما يملك، إذ كانت نفسه تنطوي على مرارة ونقمة، لكثرة ما وقع عليها من أحمال مثقلة بأنواع الهموم، كادت تسحق تلك النفس، لولا التحمل والصبر اللذان جعلا من الشاعر بعدئذ بركانًا ثائرًا يرمي بحممه، فهذه لحظة يستغلها الشاعر، إذ عليه أن يختار من العطايا ما يناسب تلك النفس الأبية الثائرة، الرافضة لكل أشكال الظلم وأنواع القهر، فهو لم يقبل عطاء الزمان ترفعًا، وبُعد همة، ذلك أن الزمان يبذل الغالي والنفيس، ويقدم كل ما لديه من أجل إرضاء المنتصر، لكن الشاعر يأبى ذلك كله؛ لأنه يرى أن من حقّه الاختيار، وتظهر همة الشاعر وعزيمته في وجه المقابلة بينه وبين الزمان، فالزمان يعطي، وهو يرفض، والزمان يريد أن يوجهه ويقوده ويسترقه، وهو يأبى أن يطيعه؛ لأن من حقه أن يقول كلمته، ويقرر مصيره، ويختار ما يناسبه، إنها لحظات حاسمة لا تهاون فيها ولا مهادنة، لا سبيل فيها إلى التراجع أو الاستسلام، إنها تمثل مرحلة الحرية في الوجود، فهو لا يؤمن بالمستحيل؛ لأنه يملك كل المقومات التي تنوء بثقلها على غيره، إنه يرى أن الدهر غير مؤهل للتعامل معه، يقول: [من الطويل]

---

[58]- المصدر السابق: ص: 58/4. (مؤيدات: قويات).

[59]- المصدر السابق: ص: 269/2.

إِذَا مَـــا تَأَمَّلْـــتُ الزَّمَـــانَ وَصَرْفَـــهُ تَيَقَّنْـتُ أَنَّ الْمَـوتَ ضَـرْبٌ مِـنَ القَتْـلِ
وَمَـــا تَسَـــعُ الأَزْمَـــانُ عِلْمِـــي بِأَمْرِهَـــا وَلا تُحْسِـــنُ الأَيَّـــامُ تَكْتُـــبُ مَـــا أُمْلِـــي
وَمَـــا الـــدَّهْرُ أَهْـــلٌ أَنْ تُؤَمَّـــلُ عِنـــدَهُ حَيَـاةٌ، وَإِنْ يُشْـتَاقُ فِيـهِ إِلَـى النَّسْـلِ[60]

إن من تأمل صروف الزمان، وتدبر خطوبه، وصل إلى يقين أن الموت فيها ضرب من القتل، والنهاية الحتمية في الحالين واحدة؛ لأن المكروه الذي يلحق بالإنسان من تلك الخطوب، هو المكروه نفسه الذي يلحق به من الموت، ولما كان الأمر كذلك، ومصير الإنسان مرهون بحتمية الموت، فإنه من حقه أن يقرر الاختيار بين هذا وذاك، وهذا يمثل حقيقة البعد النفسي في فهم حتمية المصير، ويبدو أنه لم يعد مكترثًا بالزمان وتبعاته، بل يرى أن علمه به أوسع منه، وغدا الزمان قاصرًا عن سعة علمه؛ لأن ما يمليه من إبداعه من شوارد الحكم، ودرر الأمثال، ونوابغ الكلم لا تحسن الأيام أن تكتبه، ثم يضيف إلى ذلك أن الدهر خوّان ليس أهلًا لأن تؤمل عنده الحياة؛ لأنه لا يحقق بل لا يفي بالأمل، كما أن الولد إذا عاش لقي مصائب الدهر التي تنغص عيشه، وقد تصيبه السهام فيفجع به الوالد، إنها صورة تبين الزمان على حقيقته: صروفه مفجعة، لا فرق بينه وبين القتل، وهو خوّان، ليس أهلًا للرجاء من أجل تحقيق الأماني، وهو انتهازي يقتنص الفرص لإلحاق الأذى بالبشر وهو يتلذذ باصطفاء فلذات الأكباد من أجل إلحاق الفجيعة بهم وبآبائهم، وبمقدار إلحاق القهر والعذاب ببني البشر يكون تحقيق النشوة واللذة والمتعة لنفسه، فهذه الصورة تعكس معاناة النفس، وتبين ما ينطوي عليه العالم الداخلي للشاعر من شعور بالمرارة، والضيق والنقمة على الزمان، ولذلك كان حادًا في شعوره، مبالغًا في ردّه، منتقمًا في هجومه، إذ يرى أن علمه بأمر الزمان أوسع من علمه بنفسه، بل الزمان عاجز عن كتابة ما يمليه، وقد ذهب الشاعر إلى أكثر من ذلك، حينما بدأ يوجه الضربات القاسية إلى الأيام، ويحقق لنفسه عليها النصر تلو النصر، يقول: [من السريع]

مَـــا أَجْـــدَرَ الأَيَّـــامَ واللَّيَالِـــي بِـــأَنْ تَقُـــولَ مَـــا لَـــهُ وَمَـــا لِـــي!
لا أَنْ يَكُـــونَ هَكَـــذَا مَقَالِـــي فَتَـــىً بِنِيـــرَانِ الْحُـــرُوبِ صَـــالِ
مِنْهَـــا شَرَابِـــي وَبِهَـــا اغْتِسَـــالِي لا تَخْطُـــرُ الْفَحْشَـــاءُ لِـــي بِبَـــالِ[61]

[60] المصدر السابق: ص: 771/3–179.
[61] المصدر السابق: ص: 27/4. (صلى بالنار: قاسى حرها).

لقد أصبحت الصورة معكوسة، كان الشاعر يتململ من وطأة الأيام والليالي، دائم الشكوى منها، لكنه بتصميمه وعزيمته حقق ما كان يصبو إليه من نصر عليها، وبهذا غيّر الواقع تغييرًا جذريًا، وتجاوز حدود العقل والمنطق، فهو يرى أن الأيام جديرة بأن تتظلم منه، وعليها أن تبين ما له وما لها، لا أن يتظلم منها، والغريب بالأمر أنه يجعلها الخصم والحكم في آن واحد، يقبل بأن تصرح ما تعرفه، شريطة أن تقول الحقيقة دون مواربة، ولا يتصرف هذا التصرف إلا من كان واثقًا من نفسه، لا يتظلم من الواقع، ولا يأبه بالنتائج مهما كانت؛ لأنه متيقن من أنه حقق ما أراد، وكيف لا وهو يتمتع بعلو الهمة، وقوة العزيمة، يخوض غمار الحروب، ويجابه شدائدها بكل تجلد وثبات.[62]

وقد خبر الحروب وعاش فيها، فبها يحيا ويموت، حتى أصبح شرابه من نيرانها التي يراها بردًا يتلذذ في ارتشافها، وكذلك أضحى اغتساله بها، لأنها تروح عن بدنه آثار التعب والعناء، وهي بمنزلة السلم له، ومما يدل على رفعته وعفته أنه لا يفكر بالفحشاء، ولا يحدث نفسه بارتكابها. ويبدو لي أنه يعقد مقارنة بين قضيتين: الأولى التي تتمثل في الفحشاء التي توجب غسل الجسد والنفس، وقد تصل عقوبتها إلى حد القتل، وهي في نظره لا تستحق التفكير، ولا يجوز أن تخطر على باله؛ لأنها تعارض مبادئه، والأخرى التي تتمثل التضحية بالنفس في ميادين المعارك وساحات الحروب، وهي ما توجب الاغتسال أيضا للترويح عن النفس، وإزاحة ما ران على البدن من غبار المعارك وآثار الدماء، وهذه القضية هي التي تحدث النفس بها، وتتفق مع قيمه. إنها مقارنة لطيفة تبين مبادئه التي يؤمن بها، وهي مبادئ أخلاقية إسلامية وإنسانية. وعلى أية حال فالصراع بينه وبين الزمان سجال، لا يتوقف ما دام الشاعر فيه عرق ينبض، يقول: [من البسيط]

أُرِيـــدُ مِـــنْ زَمَنِـــي ذَا أنْ يُبْلِغَنِـــي ... مَـا لَـيْسَ يَبْلُغُـهُ مِـنْ نَفْسِـهِ الـزَّمَنُ

لا تَلْـــقَ دَهْـــرَكَ إلاَّ غَيْـــرَ مُكْتَـــرِثٍ ... مَـا دَامَ يَصْحَـبُ فِيـهِ رُوحَـكَ الْبَـدَنُ[63]

إن انفعال الشاعر يمثل سورة الغضب والانتقام، والتحريض والازدراء، والإهمال وعدم المبالاة، وما نشهده في هذين البيتين من وثوق بالنفس، واشتداد في العزيمة، وقوة في

---

[62]- أشعار أبي الطيب المتنبي في هذا الموضوع كثيرة، أقتطف منها قوله (161.160/4): [من البسيط]

رُدِي حِيَـــاضَ الـــرَّدَى يَـــا نَفْـــسُ وَٱنْزِكِـــي ... حِيَـــاضَ خَـــوْفِ الـــرَّدَى لِلشَّـــاءِ وَالنَّعَـــمِ

إنْ لَـــمْ أَذُرْكِ عَلَـــى الأَرْمَـــاحِ سَابِلَـــةً ... فَـــلا دُعِيْـــتُ ٱبْـــنَ أُمِّ الْمَجْـــدِ وَالْكَـــرَمِ

أَيَمْلِـــكُ الْمُلْـــكَ وَالأَسْيَـــافُ ظَامِئَـــةٌ ... وَالطَّيْـــرُ جَائِعَـــةٌ لَحْـــمٌ عَلَـــى وَضَـــمِ

مَـــنْ لَـــوْ رَآنِـــي مَـــاءً مَـــاتَ مِـــنْ ظَمَـــأٍ ... وَلَـــوْ مَثَّلْـــتُ لَـــهُ فِـــي النَّـــوْمِ لَـــمْ يَنَـــمِ

[63]- المصدر السابق: ص: 364/4.

المجابهة، يوحي بالتمرد على القهر، والتطلع إلى كسر القيود، والتمتع بالحرية. ويرى الشاعر أن همته تفوق ما في وسع الزمان من الوصول إليه، ويريد منه أن يبلغه همته. فهو يعقد مقارنة بينه وبين الزمان، فيجد أنه متفوق عليه، متميز منه. بيد أنه –على الرغم من ذلك– يطلب منه أن يعينه على الوصول إلى مراميه وأهدافه ما دام الزمان قاصرًا عن تحقيق ذلك لنفسه، وكأن الشاعر يرى أنه يملك كل شيء، والزمان لا يملك مثل ما يملك، إنما يملك بعض الأشياء، ولذلك يريد منه أن يؤازره بهذا البعض الذي يملكه، وهذه معادلة منطقية، ومطلب معقول، فإذا تحقق له ذلك أعانه على بلوغ مراده، وإذا لم يكن فإن لديه المقدرة على الوصول إلى ما يصبو إليه، ولذلك يصرخ صرخته المدوية التي تدعو الإنسان إلى عدم الاكتراث بالدهر وصروفه؛ لأنها لا تزول ولا تبقى، وعليه أن يحافظ على روحه؛ لأن الروح إذا فاضت فلا عوض عنها، لم يعد الشاعر يؤمن بحتمية الأشياء، ووطأة تبعاتها، إنه يدعو إلى الخلاص، وإثبات الذات بكل الوسائل، ونفض ما ران على كاهله من ثقل الهموم، وغل الزمان، ونفث زفرات اليأس والخنوع والتسلط؛ ليكون حرًا طليقًا، ينعم في هذه الحياة التي خلقت لأمثاله الأقوياء الثائرين على الظلم والعبودية، يقول: [من الوافر]

أَمِثْلِـــي تَأْخُـــذُ النَّكَبَـــاتُ مِنْـــهُ وَيَجْـــزَعُ مِـــنْ مُلاقَـــاةِ الْحِمَـــامِ؟
وَلَـــوْ بَـــرَزَ الزَّمَـــانُ إِلَـــيَّ شَخْصـــًا لَخَضَّـــبَ شَعْـــرَ مَفْرِقِـــهِ حُسَـــامِي
وَمَـــا بَلَغَـــتْ مَشِـــيئَتَهَا اللَّيَالِـــي وَلا سَـــارَتْ وَفِـــي يَـــدِهَا زِمَامِـــي[64]

إن المعاناة النفسية تولد ثورة في العالم الداخلي على العالم الخارجي؛ لما ترى فيه من تناقض وظلم، ولا تهدأ ثورتها إلا بإخماد ما أثارها، فهو يرى أن النكبات لا تنال منه، ولا تصيبه؛ لأنه عازم على دفعها عن نفسه، وحازم بدرء مخاطرها، وصابر على مجابهتها حتى لا تؤثر فيه. ولما كان يصف نفسه بهذه الصفات، فإنه جدير بأن يتحدّى الزمان، ولذلك يقول: لو أن الزمان كان شخصًا برز إليَّ محاربًا . على الرغم من أنه صاحب النكبات والمصائب . لضربت رأسه بحسامي الذي شجّه فخضبت شعره، ولذلك فإن الليالي لم تبلغ مرادها منه، ولا هي قادرة على قيادته؛ لأنه لم يعطها زمامه؛ ليقاد به، ولم يكتف الشاعر بإهمال الزمان، أو منازلته وقتله، أو التمثيل به، فسعى إلى الفتك به، وسحقه من الوجود، فهذه صورة تمثل قمة الصراع في التحدي، والتصميم على إحراز النصر، وحتمية حسم نتائج المعركة بهزيمة مؤلمة للزمان الذي لا يهزم، والذي يسر فيه الشاعر أن يراه مضرجًا بدمائه، يذوق مرارة الانكسار والقهر، والألم والحسرة على يد من

[64]– السابق: ص: 163/4. ويقول في قصيدة أخرى (44/2): [من الخفيف]
أَيْـــنَ فَضْـــلِي إِذَا قَنِعْـــتُ مِـــنَ الدَّهْـــرِ بِعَيْـــــــشٍ مُعَجَّـــــــلِ التَّنْكِيـــــــدِ؟

شكاه، بكل قهر وأسى، وكل صبر وأناة، ولذلك لم يعد الشاعر يأبه بما يملك الدهر من مصائب، وما يتسلح به من نوائب؛ لأن صاحب القوة والعزيمة لا يقهر، وهو القادر على أن يدير رحى الحرب لصالحه، يقول: [من الطويل]

إِذَا قَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدىً خَوْفَ بُعْدِهِ فَأَبْعَدُ شَيءٍ مُمْكِنٍ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا
وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتِ فَاذْهَبِي وَيَا نَفْسُ زِيدِي فِي كَرَائِهِهَا قُدْمَا!!
فَلا عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لا تُعِزُّنِي وَلا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا[65]

إن العزم أساس كل شيء، فمن غيره لا تدرك الأشياء ألبتة، فإذا كان الإنسان يحتاج إلى العزيمة لإدراك القريب، فإنه من باب أولى أن يوظف العزم، ويسخره في نيل البعيد، فصاحب الإرادة القوية يحول الحلم إلى حقيقة، وهذا إيمان ثائر في نفسه التي تمتلك الإباء والشموخ، والقوة والعزيمة، فلا غرابة أن نجدها شديدة في تعاملها من أجل الدفاع عن العزة والكرامة، وتحقيق الذات، ولهذا يرى الشاعر أنه من قوم ديدنهم على الدوام المجابهة، وخوض غمار الحرب، والتضحية بأنفسهم؛ ليموتوا؛ لأن نفوسهم تأبى السكن في أجساد من اللحم والعظم، وتجد السكنى فيها عارًا، وعليها ان تبحث عن سكن آخر يخلصها من هذا العار، وكيف لا وهو يرفض الضيم والقهر؟ ولذلك يقول للدنيا: اذهبي حيث شئت، فأنا لا أبالي بك، ويا نفسُ عليك بالتقدم بكل ثبات وعزم وإصرار فيما تكرهه الدنيا! فهو لا يرضى بأن تمرّ به ساعة لا يكون فيها كريمًا عزيزًا، ولا يقبل أن تصاحبه نفس تقبل الظلم من أحد، هذه صورة تمثل فلذة من فلذات الشاعر الملحمية البطولية التي تدل على مدى تمسكه بكرامته وعزته وإبائه، وعدم قبوله بالانقياد لأحد؛ لأنه هو الذي يقود، ولا يُقاد، يأمر، ولا يُؤمر، يقول: [من الطويل]

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَلائِدي إِذَا قُلْتُ شِعرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا[66]

بعد أن كان الفراق بينه وبين الدهر فراقًا أبديًا؛ لأنه حقق النصر عليه، رأى أنه من العدل أن يرد له الصاع صاعين، وأن يُلحق به الذل والقهر، من خلال جعله واحدًا من الرواة الذين يقومون على خدمته في رواية إبداعه الشعري، ذلك أنهم ينشدونه ويروونه في كل وقت وحين، هذا تعبير يعيد للنفس مكانتها وثقتها، ما جعلها تتلذذ بهذا المشهد

[65]- المصدر السابق: ص: 235/4.
[66]- المصدر السابق: ص: 14/2.

البديع الذي يخلق لها جوًا من المتعة والطرب، وشعورًا بالزهو والإباء من خلال تذوق نشوة النصر في الإبداع والإجادة، وتسخير الدهر مع الناس لرواية هذا الإبداع.

خاتمة:

إن شعر المتنبي في هذا الموضوع يمثل ظاهرة فريدة من نوعها، نراه يحلق في سماء الدنيا، ويرقب أيامها ولياليها، وينظر إلى دهرها وزمانها، فيرى ما لا نراه، يشاهدها، فيهوله ما فيها، فيشكو مصائبها وحدثانها ونوازلها، لكنه على عادته لا يقنع بالوقوف عند ظاهر الأشياء، ما دفعه إلى إعداد العدة التي تقيه سهام النوائب، فوجد في نفسه مقدرة على التحمل الذي حدا به إلى أن يأبى الدفاع عن النفس دون الهجوم، فقد كان محلقًا في السماء يرقب ما تحته، ولما حانت الفرصة، لتوجيه ضربته القاضية، ضم جناحيه منقضًا، معلنًا التحدي؛ لخوض غمار الحرب، وكشف أسرارها، وهو لا يرضى بأقل من تحقيق النصر المؤزر على كل الظواهر المعارضة، من أجل إخضاعها، حتى تكون أسيرة لديه، مهيضة الجناح، مكسورة النفس، يطوعها لنفسه، ويروضها لخدمته، تمهيدًا لفرض العبودية وتحقيق الغايات، ولكنه سرعان ما يكتشف أنها غير مؤهلة للقيام بخدمته، وتحقيق غايته فيهجرها هجرة بائنة؛ لأنه لا يرى أملًا في الاحتفاظ بها، فيصرخ صرخته المدوية، معلنا تفرده وتميزه، وقدرته على التحدي قائلًا: [من الطويل]

كَـذَا أَنَّـا يَـا دُنْيَـا إِذَا شِئْـتِ فَاْذْهَبِـي وَيَـا نَفْسُ زِيـدِي فِـي كَرَائِهِهَـا قُـدْمَا! [67]

هذه شذرات تمثل الروعة في الفن الأدبي الرفيع، والانفعال الداخلي الثائر الذي يطل من خلال النوافذ الفسيحة على العالم الخارجي؛ ليكسر كل الحواجز الرتيبة الجامدة التي يواجهها البشر من حتمية المصير الذي يكتنفه كثير من الغموض، متمثلًا معظمه في التسليم إلى السيطرة بنوع من الطاعة التي تقود إلى السأم والتعب، والمشقة والوصب، غير أن المتنبي لم يذهب هذا المذهب؛ لأنه بدأ يتعمق الظواهر غير آبهٍ بما يؤمن به غيره من الاستسلام، إذ أخذ يتلقى كل الأزمات، لفهمها، ويشكوها متعللًا بمجاراتها، ويتحملها تمهيدًا، لمواجهتها، ويعدّ العدة، لمجابهتها، وقد تدرج هذا التدرج المنطقي معها الذي جلاها وكشف غموضها؛ ليجد المسوغات لكل ما يقوم به من تصرف، فنجده يصرخ صرخة الخلاص لا الاستسلام، وصيحة البدء بالهجوم لا الرضوخ، معلنًا التمرد، إذ لم يعد بإمكانه القبول بالمسلمات التي لم تجلب معها إلا قسوة الظلم والقهر، والأسى والعذاب، والذل والحرمان، ما جعله يطلق العنان لمعاناته النفسية، التي أبدعت هذه الصور الرائعة التي استندت إلى التنويع والتجديد، من خلال كسر الجمود في كل الثوابت الرتيبة المملة.

---

[67]– المصدر السابق: ص: 235/4.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط1، دار المدني، جدة، 1991/1412.
3. تاج العروس: الزبيدي.
4. ثمار القلوب: الثعالبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1985.
5. ديوان البحتري: تحقيق: حسن الصيرفي، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1977.
6. ديوان مجنون ليلي: تحقيق: عبد الستار فراج، مكتبة مصر، القاهرة، (د.ت).
7. الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة: الحاتمي، تحقيق: فؤاد أفرام البستاني، الطبعة الكاثولكية، بيروت، 1931.
8. شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي: العكبري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
9. شرح ديوان المتنبي: البرقوقي، دار الكتاب العرب ، بيروت، 1980/1400.
10. شرح ديوان المتنبي: الواحدي، (د.ن)، (د.م)، 1861.
11. شرح ديوان كثير عزة: رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، 1996.
12. الصبح المنبي عن حيثية المتنبي: يوسف البديعي، تحقيق: مصطفى السقا ومحمد شتا، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1977.
13. صحيح مسلم: شرح النووي، تحقيق: حازم محمد وعماد عامر، ط1، دار أبي حيان، القاهرة، 1995/1415.
14. العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1988/1408.
15. الفروق اللغوية: العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة 1998.
16. الفن ومذاهبه في الشعر العربي: شوقي ضيف، ط10، دار المعارف، القاهرة 1978.
17. في النقد والأدب: إيليا الحاوي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980.
18. قيس ولبنى، شعر ودراسة: حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1979.
19. لسان العرب: ابن منظور.

20. المصباح المنير: الفيومي.
21. مع المتنبي: طه حسين، ط12، دار المعارف، القاهرة، 1980.
22. المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة: كاظم محمدي، دار الضياء، بيروت، 1986/1406.
23. وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1972.
24. يتيمة الدهر: الثعالبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط2، بيروت، 1973/1393.

الدوريات:

1. جنون العظمة في المتنبي: عبد الرحمن صدقي، مجلة الهلال، مجلد(43)، 1934.
2. حياة المتنبي: شفيق جبري، مجلة الهلال، مجلد(43)، 1934.
3. شخصية المتنبي في شعره: عباس محمد العقاد، مجلة الهلال، مجلد(43)، 1934.
4. الغموض في شعر المتنبي: البرقوقي، مجلة الهلال، مجلد(43)، 1934.
5. فضيلة خلقية: طاهر أحمد الطناحي، مجلة الهلال، مجلد(43)، 1934.
6. عبرة الشباب: سامي الكيالي، مجلة الهلال، مجلد(43)، 1934.
7. هل كان المتنبي فيلسوفًا؟: أحمد أمين، مجلة الهلال، مجلد(43)، 1934.